وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر ابراهيم | مصطفى خفاجى | على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك | على الجارم بك

الجزء الأول

لتلاميذ السنة الأولى للبنين

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر ابراهيم   مصطفى خفاجى   على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك   على الجارم بك

الجزء الأول

لتلاميذ السنة الأولى للبنين

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨



نحمدك اللهم استتماما لنعمتك ، و إقرارا بربوبيتك ، ونستعينك مفتقرين إلى هدايتك : التى كشفت عن القلوب حجب الظلام ؛ فكانت أمناً لمن تعلق بها ، وسلّما لمن دخلها ، وبرهاناً لمن تكلم بها ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق .

ونصلى ونسلم على نبيك الكريم الذى أرسلته بالدين الحنيف ليتمم مكارم الأخلاق ، ويدعو إلى الحق فى جميع الآفاق .

اللهم صلّ وسلم عليه وعلى جميع الرسل والأنبياء والآل والصحاب .

وبعد : فهذا كتاب نقدّمه للناشئة المثقفة ، جمع بعض مايشتمل عليه الإسلام من كريم الآداب ، وأحاسن الأخلاق ، ومن الحكم الغالية ، والأغراض العالية ، وما تضمنه من التشريع السامى الذى رفع الجنس البشرى إلى أشرف منزلة وأرفع أوج . هذا إلى تفسير كثير من الآيات الشريفة ، والأحاديث الكريمة : التى جمعت من الأحكام ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد جاء هذا الكتاب على وفق المنهج الأخير الذى وضعته وزارة المعارف لطلبة المدارس الثانوية ؛ لإحياء الدين فى نفوسهم ، وتطهيرها من شوائب السوء ، وطبعهم على شريف الأخلاق وكريم الخلال .

والله نرجو أن يكون لكتابنا هذا من الأثر النافع ما يحقق آمالنا .

وبالله وحده التوفيق ؟

ذو الحجة سنة ١٣٥٦ هـ (فبراير سنة ١٩٣٨ م) المؤلفون

حَاجَةُ النَّاسِ إلى الرُّسُلِ

اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يتفاوت الناس فى أمزجتهم[1] وعقولهم، ويتباينوا فى طباعهم وميولهم ؛ وبذلك يختلف نظرهم إلى الأشياء نفعًا وضرًا، خيرًا وشرًا، حبًا وكرهًا ؛ فقد يرى المرء نافعًا ما يتجلى لسواه ضره، وخيرًا ما يتضح لغيره شره، ويحب ما يجدر به كرهه، وقد يتخبط[2] سبيلَ الوصول إلى الحقيقة، ويصلُ إليها غيرُه من أقرب طريقة .

فالنـاس مفطورون على معـرفة الخالق العظيم، ولكن بتغاير عقولهم اختلفت وسائلهم فى الزلفى[3] إليـه : فمنهم من رآها فى عبادة بعض الأجرام السماوية، ومنهم من رآها فى عبادة بعض الفصائل الحيوانية، ورآها قوم فى عبادة الأصنام والأوثان، وآخرون رأَوْها فى تعظيم النيران، وبعض الناس أَبت نفوسهم أَن يعبدوا غير خالقهم، ولكن على أى نحو يعبـدون ؟ وبأية وسـيلة يتقربون ؟ فأفنوا أَعمارهم حائرين لا يدرون ما يفعلون .

على هـذا التباين جُبِلَ[4] الناسُ وفيـه نشئوا، وظهر أثره فى عقائدهم، وأَقوالهم وأَفعالهم، وحركتهم وسكونهم .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ[5] ﴾ .

---

(١) مزاج الجسم : طبائعه التى ركب عليها . (٢) يسير على غير هدى . (٣) القربة والمنزلة .
(٤) خلق . (٥) من سورة هود (١١٨) .

بهـذا كان الناس فى حاجة قصوى إلى حدود مرسومة لا يتعدَّوْنها ، وقوانينَ عامةٍ يُكَلَّفُونَ العمل بها ولا يتجاوزونها . ولا يقدر على رسم تلك الحدود، ولاوضع هذه القوانين إلا بصيرٌ بمختلف أَحوالهم، عليمٌ بتغاير مصالحهم، وهو الله جلت قدرته وعظمت حكمته .

ثم هم أيضًا فى أَشدِّ حاجة إلى من يبلغهم هذه الحدود والقوانين عن الله تعالى، ويوضحها لهم؛ ليميزوا الخير من الشر، ولا يلتبس(1) عليهم النافع بالضار .

وهم فى حاجة إلى من يهديهم إلى مافيه صلاح دنياهم، وسعادة أخراهم، ويبشر الطائعين برضا الله وعظيم ثوابه، وينذر العاصين بغضبه وأليم عقابه . ولا يقوى على أداء هذا المهم الأعظم إلا أناس رجحت عقولهم، وسمت صفاتهم : يصطفيهم الله تعالى من عباده، ويؤيدهم بأمور ليست من مألوف البشر ولا فى مقدورهم .

وهؤلاء هم الرسل عليهم الصلاة والسلام .

١ — الرُّسُلُ دُعَاةُ هِدَايَةٍ وَإِصْلَاحٍ

(١) لأنهم يَهدون الناس بالتفكر فى ملكوت السموات والأرض إلى معرفة ربهم، ويُبصِّرُونَهُم من صفاته السامية بما يتناسب هو وعقولهم، ويتكافأ هو ومستوى إدراكهم، ويدعونهم بهذه المعرفة إلى توحيده وإفراده بالامتثال، ومراقبته وحده فى جميع الأقوال والأفعال .

(٢) ويوضحون لهم العباداتِ التى يفرضها عليهم ربهم تذكُّرًا لعظمته، وشكرًا لنعمته، وطلبًا لرضائه، واستدامة لولائه(2) .

(١) يختلط . (٢) لنصرته ورعايته .

(٣) ويقيمون لهم بأمر الله تعالى حدودًا عامة، ويضعون لهم قواعد كلية : يَسْهُلُ عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، ويُحَكِّموها فيما اختصمت فيه عقولهم وميولهم، وتنازعته مصالحهم وأهواؤهم؛ حتى لا يعتدى قوى على ضعيف، ولا يضيعَ حق من صاحبه، كما لا تهدر مصلحة عامة فى سبيل مصلحة خاصة، بل يرى الفرد حق الجماعة فلا يطغى عليه، وتشعر الجماعة بحق الفرد فلا تهضمه .

(٤) ويغرسون فى الناس المحبة، ويبثون بينهم الألفة، ويعرفونهم مزايا الاتحاد والتعاون على الخير؛ فيعطف كبيرُهم على صغيرهم، ويوقر صغيرُهم كبيرهم، ويساعد غنيُّهم فقيرَهم، وقويُّهم ضعيفَهم، ويرشد هاديهم ضالَّهم، ويعلم عالمُهم جاهلَهم .

(٥) يَسْمُون بهم الناس إلى معالى الأمور، وينأَوْن[1] بهم عن سفسافها؛ وفى ذلك التحلى بالأخلاق النبيلة، والتخلى عن كل رذيلة، مع تفصيل كل ما يؤهلهم لرضا الله، وما يعرضهم لسَخَطه .

(٦) ينبئون الناس بيوم القيامة :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا . أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * ﴾[2] . ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * ﴾[3] .

ويمزج الرُّسل دعوتهم بالترغيب فى ثواب الدار الآخرة الذى أعدّه الله للطائعين فى جنة النعيم، والترهيب من عذابها الذى أعدّه للعاصين فى نار الجحيم .

---

(١) يبعدونهم عن الدنايا . (٢) من سورة المجادلة (٦) .
(٣) من سورة الزلزلة (٧ و ٨) .

وليس من مهام الرسل البحثُ فى تفصيلات العلوم المختلفة،وما ورد فى كلامهم أو فى الكتب المنزلة عليهم من الإشارة إلى هذه العلوم فلأمرينْ :

(١) التدبر فى آيات المبدع الحكيم؛ زيادة فى التبصرة، وإدامة للتذكرة، وتطهيرًا للقلب، وتصفية للنفس .

(ب) توجيه النظر إلى البحث فى هذه العلوم والوقوف على حقائقها؛ تنمية للمعارف، وتوسعة للمدارك . وفى ذلك تشجيع للعلم ونهوض بالعقل .

٢ ـــ مَا يَعْتَرِضُ الْمُصْلِحِينَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِم احتمالهم الأذى ، وَثَبَاتُهُمْ عَلَى مَبَادِئِهِم

الدعوة إلى الإصلاح ليست من الهَنَوات الهَيِّنَات، بل من الأمور الشاقة العسيرة: التى يحتاج حمل لوائها إلى نفوس كبيرة: لا تبالى ما صادفها من صعاب، ولا ما اعترضها من عقاب؛ لأن هذه الدعوة لا تنبت إلا حيث العاداتُ القبيحة المتغلغلة فى النفوس، والأخلاقُ السيئة المتمكنة من الأفئدة، ولا توجد إلا حيث يعم الجهل، وتتفشى الغطرسة[1]، وينتشر الفساد . فعند ظهور نور الدعوة تثور ثائرة العادات الرديئة، والأخلاق الوبيئة، ويحتدم غضب الجهالة الجهلاء، والسَّفَاهة العمياء، ويَهُبُّ أصحابها يسدّون السبل على صاحب الدعوة، ويمطرونه وابلًا من الإيذاء على اختلاف ضروبه وتعدّد ألوانه، ولا يَفْتُرُون[2] عن وضع العراقيل؛ ليحولوا بينه وبين قصده النبيل .

(١) الاعجاب بالنفس والتطاول على الأقران والتكبر .

(٢) لا يسكنون ولا يضعفون عن وضع الصعاب .

ولكن أصحاب الدعوة عظماء، فلا الوعد يُغْريهم، ولا الوعيد يَثْنيهم، ولا الاستهزاء يزعزعهم، ولا الإيذاء يردعهم، ولا جحود الكثرة يمنعهم، بل هم فى دعوتهم ماضون، وعنها لا يحيدون، وعليها ثابتون، وبنصر الله واثقون .

وخير مثال لهؤلاء المصلحين الرسُل عليهم الصلاة والسلام ، جاءوا أممهم بنور الهداية، وهم فى ظلام الغواية يعمهون[1]، وفى قيود الرذائل يَرسُفون[2]، وفى تيه الفساد يضلون، فأهابوا[3] بهم لِيُخْرِجُوهم من الظلمات إلى النور، فهبّ[4] أكثرهم لا ليطيعوهم، بل ليصدّوهم، وما تركوا باب إيذاء لهم إلا وَلَجُوه، ولا سبيل إساءة إليهم إلا سلكوه :
﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ[5] ﴾ .

ذلك والرسل عليهم السلام كرواسى الجبال ، لا يأس ولا كلال[6] ولا ملال[7] ، بل أمل ونشاط وإقبال، على ما ينتشل القوم من مهاوى الضلال .

٣ — نوح عليـــه السلام

لبث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، ويُبَصِّرُهم بآيات الله فى خلقهم، وخلق السموات والأرض والشمس والقمر .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ[8] الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[9] بَادِيَ الرَّأْيِ[10] وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * ﴾[11].

(١) فى الضلالة يتحيرون . (٢) يمشون مشى المقيد . (٣) دعوهم . (٤) نهض .
(٥) ليقتلوه . (٦) تعب . (٧) سآمة . (٨) الجماعة، والأشراف . (٩) أسافلنا .
(١٠) ظاهر الرأى أى ما يظهر منه أولا من غير تفكر . (١١) سورة هود (٢٧) .

واستمر نوح يقيم لهم الحجة تلو الحجــة[١]، ويدعوهم إلى ربهــم؛ ليغفر لهم ما فرط من ذنوبهم، وهم يبالغون فى إعراضهم عن الإصغاء إلى كلمــة الحق، والنظر إلى الطريق القويم؛ فكانوا كلما رأوه مقبلًا لإرشادهم .

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ[٢] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ[٣] وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا[٤] *﴾.

ولم يقف أمرهم عند حدّ الإصرار والاستكبار، بل آذوه وأفرطوا فى إيذائه؛ فقد قيل : إنهم كانوا يضربونه حتى يُغشَى عليــه، وهو مع ذلك مصر على دعوته، دائب[٥] فى بذل نصيحته، وتبليغ رسالته، وتحذيرهم مقت[٦] الله ونقمته .

ولمــا رأوا أن استهزاءهم لا يرده، وأن إيذاءهم لا يصدّه :

﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا[٧] فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[٨] * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ[٩] . هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[١٠] * ﴾ .

الشكوى :

واتضح لنوح أنهم بغوايتهم متمسكون، وعن إيذائه لا يرجعون، فتوجه إلى ربه يرجون منه تفريج كربه :

(١) سبق . (٢) تغطوا بها . (٣) أقاموا على المعصية .
(٤) سورة نوح (٧) . (٥) مجتهد . (٦) بغضه، ونقمته : عقابه .
(٧) خاصمتنا وناقشتنا . (٨) بفائتين الله أى لا تقدرون على الهرب منه . (٩) يضلكم .
(١٠) سورة هود (٣٢ و ٣٣ و ٣٤) .

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (١) * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢) * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ (٣) آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا (٤) وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٥) * ﴾ .

الخُطَّـــةُ الأخـــيرة :

أخبره الله تعالى بعد هـــذه الشكوى بأن الكثرة قد كتبت عليها الشقاوة، فلن يجيبَ دعوتَهُ إلا القليلُ الذى أجابها من قبل ، وأمره بصنع الفُلْك ؛ لأنه سيغرق الظالمين : قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَأُوحِيَ (٦) إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ (٧) بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (٨) وَوَحْيِنَا (٩) وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا . إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ . قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ (١٠) وَيَحِلُّ (١١) عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (١٢) قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ . وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا . إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ * ﴾ .

---

(١) طغيانا وكفرا . (٢) عظيما جدا بالتكذيب والايذاء . (٣) لا تتركن .
(٤) ود وما بعده : أسماء أصنامهم . (٥) ســورة نــوح (٢١ – ٢٤) .
(٦) أخبره الله . (٧) تحزن . (٨) بحفظنا . (٩) أمرنا .
(١٠) يهينه أو يهلكه . (١١) ينزل عليه عذاب دائم . (١٢) وجه الأرض .

عطف الوالد وعقوق الولد :

فى أثناء هــذا الهول المروّع ، والخَطْبِ المفزع ، والأمطار الهاطلة ، والعيون المتفجرة والأمواج المتلاطمة ، والريح العاصف ، والبرق الخاطف ، والرعد القاصف — فى أثناء هذه القيامة القائمة لم يَتَخَلَّ نوح عن عطفه الأبوى على ابن له عاق لأبوته ، جاحد لرسالته ، فدعاه إلى سفينة النجاة ، ولكن غلبت على الولد شقوته ، فلم يُجْدِ معه عطف الوالد ولا شفقته ولا نبوته ، والإسعاد والإشقاء بيد خالق الأرض والسماء .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ (١) : يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ (٢) إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ . قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ . وَحَالَ (٣) بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى (٤) وَغِيضَ (٥) ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ (٦) عَلَى ٱلْجُودِىِّ (٧) وَقِيلَ بُعْدًا (٨) لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ * قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ، إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ (٩) بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ * قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ (١٠) بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * ﴾ (١١) .

---

(١) ساَلجأ . (٢) يمنعنى من الغرق . (٣) حجز . (٤) أمسكى وامتنعى عن المطر .
(٥) ذهب فى الأرض . (٦) وقفت ورست . (٧) اسم الجبل الذى رست عليه . (٨) هلاكا .
(٩) ألجأ إليك واعتصم بك . (١٠) انزل من السفينة . (١١) سورة هود (٤٢ — ٤٨) .

٤ — إبراهيم عليـــه السلام

إن من يتأمل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام يتجلى له المثل الأعلى بارزاً للعقيدة الراسخة ، والإيمان الثابت : الذى لا يؤثر فيه أشد ضروب الإيذاء ، ويلمس الحجج القاطعة، والأدلة الناصعة: التى تأخذ السبيل على أشد الناس جدالاً ، وتتدرج بألدهم خصومة إلى التسليم ، لولا الغباوةُ ، وسبقُ الشقاوة :

دعا قومه إلى هجر عبادة الأوثان ، وتوحيد الملك الديان ، وأنه لا يليق بذوى العقول والأبصار ، أن يعبدوا إلا النافع الضار ؛ فوجه نظرهم إلى الكواكب ، ثم إلى القمر ، ثم إلى الشمس ، وأن هذه أنفع من أصنامهم ، وأجدر منها بالعبادة ، لولا أنها تغيب ، ولا يليق بالخالق أن يغيب عن هداية مخلوقة طرفة عين ، وإلا ضل سواء السبيل ، ثم تدرج من ذلك إلى أن الأحق بالعبادة هو فاطر السموات والأرض ، وحارسهما بعين عنايته دائماً ، وحافظهما من الزوال بالليل والنهار . تأمل ذلك كله فى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؟ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ(١) السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ(٢) عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ، قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّآ أَفَلَ(٣) قَالَ لَآ أُحِبُّ الْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا(٤) قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ،

(١) ملك . (٢) أظلم . (٣) غاب . (٤) طالعا .

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا(١) وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * ﴾ .

ومن حججه العظيمة القوية التى حار منها الخصم ما ذكره الله تعالى فى سورة البقرة بقوله:
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ(٢) إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ(٣) ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ(٤) ٱلَّذِى كَفَرَ . وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ﴾.

ومع هـذه البراهين الدامغة(٥) استمرّ قومه يجادلونه ويُحذّرونه عاقبة هجر عبادة الأصنام ، فعجب ابراهيم من هذا التحذير قائلًا : من أحق بالاطمئنان ؟ المؤمن بالله الذى خلق كل شىء، والذى لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء، أم مَنْ أشرك به مَنْ لا ينطق ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفـع ؟ عجبًا لكم ! تطلبون منى أن أخاف أصنامكم ، ولا تخافون الذى خلقكم ! إنّ أولى النـاس بالأمن والاطمئنان ، المؤمنون الخالصو الإيمـان . اقرأ ذلك بوضوح فى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ . قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ . وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا . وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا . أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا(٦) ، فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ؟ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا(٧) إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * ﴾ .

---

(١) مائلا الى الدين الحق . (٢) جادل . (٣) أعطاه . (٤) فدهش وتحير وانقطعت حجته . (٥) القاهرة للخصم . (٦) حجة وبرهانا . (٧) ولم يخلطوا .

الْعَزْمُ عَلَى تَكْسِيرِ الأصنَام :

تمادى القوم فى عصيانهم على رغم حجج إبراهيم البـالغةِ غايةَ القوة، فَبَيَّتَ النية على خطة عملية، هى تكسير أصنامهم؛ ليقيم لهم حجة أخرى على أن آلهتهم لا تقوى على الدفاع عن نفسها، ولا على الإخبار عمن هشمها ،

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا(١) إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ(٢) لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا(٣) إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا(٤) عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ(٥) لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ *﴾ .

فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب، فكروا فى أقسى انواع العقاب ، فبنوا بيتا، ومكثوا مدّة طويلة يجمعون فيـه صلاب الحطب ، وأصناف الخشب، ثم أشعلوا نارا عظيمة ، كادت الطير تحترق من وهجها ، وألقوا ابراهيم فيها مقيـدا مغلولا، فنزع الله عنها ما طبعها عليـه من الحرارة والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق، ولم يظهر طبعها فى الإحراق إلا فى فك الوثاق، قال الله تعالى :

---

(١) فتاتا أى قطعا . (٢) ظاهرا أمامهم. (٣) فكروا .

(٤) ردوا الى كفرهم . (٥) قبحا .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا (١) عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا (٢) فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * ﴾ .

يقين راسخ وثقة بالله لاحدّ لها

ألقى الكفار إبراهيم عليه السلام فى نار ملتهبة، وجحيم متأججة، فقابل ذلك بيقين وثقة عظيمين يتجليان فى قوله حينما رموه : «حسبى (٣) الله ونعم الوكيل» .

ثم تأمّل هذا الإيمان القوى، وقِف عنده إجلالًا، إذ قال له جبريل عليه السلام وهو فى النـار : هل لك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا . قال : فاسأل ربك قال : حسبي من سؤالى علمه بحالى .

الحق أن ذلك موقف يدعو إلى الإكبار : أَهْوَلُ ألوان العذاب يقابل بأعظم يقين وأثبت إيمـان، وأسمى ثقة واطمئنان، ولذلك استحق صاحبه أن يكون خليل الرحمن .

الإيمان الخالص كما يصفه الخليل

قال الله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا (٤) وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ (٥) فِى الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ

(١) سلامة ونجاة . (٢) مكرا عظيما فى الإضرار به . (٣) يكفينى .
(٤) كمالا فى العلم والعمل به يؤهل للرياسة . (٥) ثناء حسنا فى الذين يأتون بعدى .

جَنَّـةِ النَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِى، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[1] * ﴾ .

ذلك هو الإيمـان الخالص الذى من اتصف به لا تزعزعهُ الشـدائد مهما عظمت، ولا تزعجه الحوادث مهما جلت . وقد كان حادث إلقاء ابراهيم فى النار تجربة عملية، وحجة قوية على أن أوصاف الإيمان التى ذكرها عقيدةٌ راسخة فى نفسه، متغلغلة فى سويداء قلبــه ، مختلطة بلحمه ودمه، لا كلامٌ أجوفُ إذا هبت رياح الحوادث كشفت القناع عن كذبه .

حِلْمٌ وبِرٌّ

لا يسعنا أن نترك الكلام على ذلك الرســول الكريم دون أن نشير إلى ما كان عليه من حلم واسع، وعطف كبير، وبر عظيم بوالده، وإشفاق عليه، ورحمة به، على رغم ما كان يقابله به أبوه من غلظة وقسوة وعنف : تتجلى هذه الصفات كلها فى دعوته إلى الإيمان، ومحاورته فى توحيد الله، واستغفاره له بعد إبائه وتهديده . قال تعالى فى سورة مريم :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا[2] نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا[3] سَوِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُـدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ

(١) خالص من الشرك والنفاق . وهذه الآيات من سورة الشعراء (٧٨ — ٨٩) .

(٢) مبالغة من الصدق أى إنه عظيم الصدق ملازم له مبالغ فيــه . . (٣) طريقا مستقيما .

لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (١) * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا (٢) ، * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ (٣) سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤) * ﴾ .

واستمرّ سيدنا إبراهيمُ يستغفر الله لوالده وفاء بوعده ، إلى أن تجلى له أنه لن يؤمن ، وأن الشقاوة قد سبقت عليـه ، فامتنع عن الاستغفار له وتبرأ منـه . قال تعالى فى سورة التوبة (١١٤) :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ (٥) حَلِيمٌ (٦) * ﴾ .

صـــبر وجـــلد وطاعـــة

أُمِرَ سيدنا إبراهيم فى الرؤيا — ورؤيا الأنبياء وحى — أن يذبح وحيـده ، وفِلْذة كبده الذى رُزِقه بعـد أن مسه الكبر ، فأخبر بذلك ولده ؛ ليتعرّف ما عنده من الصبر ، إذا ما أنفذ فيـه الأمر ، وليهيئه لقبوله ، ويوطن نفسه على حصوله ، فوجد فيه نفسًا مطمئنة ، وصبرًا جميلاً ، وتسليماً نبيلاً ، وجلدًا لم نر له مثيلاً ؛ فاستعد الوالد لتنفيذ الأمر الإلهى بإيمان فى الذروة ، وعزيمة فى نهاية القوة ، وهمة هى مظهر لصبر مقطوع النظير ، وجلد يضرب به المثل ، وطاعة بالغةٍ قمةَ التسليم ، كان جزاؤها فداءَ إسماعيل بذبح عظيم ، والبشرى بإسحاق نبيًّا من الصالحين .

---

(١) ناصرا وقرينا فى النـار . (٢) دهرا طويلا . (٣) لا أصيبك بمكروه ، لك منى الأمان . (٤) مبالغ فى إكرامى والعناية بأمرى . (٥) كثير التضرع والدعاء .
(٦) صبور على الأذى .

و إنك ليعسر عليك أن تسبر الغور البعيد المدى الذى بلغته هـذه الصفات العظيمة عند الذابح والذبيح ، فهما فيها سيان، وفرسا رهان ، وعليك قراءة هـذه القصـة فى القرآن، لتلمس هـذه الخلال السامية، قال تعالى فى سـورة الصافات (١٠٠ — ١١٢) :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ[1] قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى الْمَنَـامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ . قَالَ يَـٰٓأَبَتِ افْعَـلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِىٓ إِنْ شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا[2] وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ[3] * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَـدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَـٰٓؤُا الْمُبِينُ[4] * وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ[5] عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَـادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّـا مِنَ الصَّـٰلِحِينَ * ﴾ .

٥ — موسى عليـــه السلام

إِلْهَـامٌ أَوْ مَنَـامٌ :

فى أثنـاء ما كان يعانيه الإسراءيليون من فرعون من الاضطهاد والاستعباد ، وقتل الأبناء واستحياء النساء — فى حُلْكَة هذا الظلام ولد سيدنا موسى عليه السلام، فأرضعته أمه والأحزان تنتابها ، والخوف عليـه من فرعون يملؤها ، إلى أن ألقى الله فى رُوعها أن تضع فلذة كبدها فى صندوق محكم تلقيه فى النيل، وأنه سيردّه إليها سليماً،

(١) كبر وأمكنه أن يسعى معـه و يعينـه . (٢) خضعا وانقادا لأمر الله تعـالى .
(٣) صرعه على جبينه، ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة . (٤) الاختبـار الظاهر .
(٥) الذبح : ما يذبح .

وسيجعله عظيماً، فتقذفه المقادير إلى قصر من تخشى عليه سطوته (١)، وتخاف بطشه: عدوّ الله وعدوّه فرعون، فيعاودها اضطرابها، وتعتورها (٢) وساوسها، وتكاد من شدة كربها، تبوح بمكنون سرها، لولا أن ربط (٣) الله على قلبها، وطلبت من أخته أن تقتفى (٤) أثره، وتتبع خبره، وألقى الله عليه محبة فى قلب امرأة فرعون، فحالت بينه وبين قتله، ثم عرضوه على المراضع فأعرض عنهن إلا أمه التى قدّر أن تكون له ظئراً (٥)، كى تقر عيناً، وتطيب خاطراً. تقرأ ذلك كله فى قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ (٦) وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا. إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَـٰطِـِٔينَ (٧) * وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا (٩)، إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ (١٠) لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ (١١)، فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ (١٢) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ (١٣) لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ * فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *﴾. [سورة القصص (٧ — ١٣)]

(١) السطوة والبطش: القهر، والأخذ بعنف. (٢) تتداولها. (٣) ثبتها وألهمها الصبر.
(٤) تتبع. (٥) الظئر: العاطفة على ولد غيرها المرضعة له، وأم موسى كانت ترضعه بالأجر على أنه ليس ابنها، فهى ظئر بهذا المعنى. (٦) البحر، والمراد به النيل. (٧) عاصين. (٨) سرور.
(٩) خاليا من العقل، أو خاليا من كل شىء إلا من التفكير فى موسى. (١٠) لتظهر أمره.
(١١) اتبعى أثره. (١٢) عن بعد. (١٣) يقومون بشأنه.

عظـــة وعـــبرة :

فى بيت الظلم والطغيان، وفى منزل ادعاء الإلهية ينشأ موسى رسول الله عليـه السلام ! سبحانك ربى ما أرفع شأنك، وأجل حكمتك، وأعظم قـدرتك ، تُنْبِتُ فى الجدب الزهرةَ الزاهرة، وتُنْشِئُ بين النفوس الخبيثةِ الأرواح الطاهرة، وتَغْرِسُ الرسالة، فى أرض الجهالة، وتخرج من بين العبودية من يعمل للحرية ! قدرة قاهرة، وعظمة باهرة، قَيَّضَت لموسى فرعون الطاغية، فاتخذه هو وزوجه ولداً وقرة عين، فترعرع فى ساحات رعايته، وفى باحات كنفه وحمايته، وما درى أنه سيكون سبباً فى هلكتـه .

و إذا أراد الله نُصرة عبده ＊ كانت له أعداؤه أنصارا

جنـاية غير مقصـودة :

شب موسى على حظ وافر من القوّة العقلية والجسمية :

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ(١) وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَـٰثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ(٢) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْـهِ(٣) ، قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ＊ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ . إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ＊ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً(٤) لِلْمُجْرِمِينَ ＊ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ(٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ(٦) ＊ فَلَمَّا

(١) فرقته وطائفته . (٢) ضرب صدره بجمع كفه . (٣) فقتـله .
(٤) عونا . (٥) يستغيث به . (٦) لضال ظاهر الضلال .

أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * ﴾ (١) .

هجرة وزواج :

بلغ فرعونَ ماحدث من موسى فأتمر هو وملؤه به ، وصمموا على البحث عنه لقتله :

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ (٢) قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ (٣) بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ (٤) تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً (٥) مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (٦) ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا (٧) ، قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ (٨) الرِّعَآءُ ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ (٩) إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ (١٠) ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى (١١) ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ (١٢) ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَآ أُرِيدُ

(١) سورة القصص . (١٥ — ١٩) . (٢) يسرع فى مشيه . (٣) يتشاورون فى أمرك .

(٤) قصد جهة مدين وهى قرية شعيب . (٥) جماعة . (٦) تمنعان غنمهما من الماء .

(٧) ما شأنكما . (٨) حتى يرجع الرعاة من سقيهم و يصرفوا مواشيهم عن الماء .

(٩) ذهب وانصرف . (١٠) اتخذه أجيرا . (١١) تكون أجيرا لى فى رعى غنمى .

(١٢) سنين .

أَنْ أَشُقَّ(١) عَلَيْكَ . سَتَجِدُنِىٓ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ، أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ(٢) عَلَىَّ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٣) * ﴾.

الرِّسَالَةُ وآياتهـا :

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ(٤) مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا، قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ، لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ(٥) مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٦) * ﴾ .

وهنالك على الجبـل كلّم موسى مولاه ، وأرسله إلى القوم الطغاة، فاقرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة الشعراء (١٠ — ٥١) :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ . أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ، إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا(٧) وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا(٨) عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ

(١) أتعبك . (٢) فلا تعدّى ولا ظلم بطلب الزيادة . (٣) شاهد وحفيظ وهذه الآيات والآية التى بعدها من سورة القصص (٢٠ — ٢٩) . (٤) أبصر من بعد . (٥) الجمرة الملتهبة . (٦) تستدفئون . (٧) طفلا . (٨) المن هنا : تعديد النعم على المنعم عليه فخرا عليه وتكديرا له .

السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنّٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ (١) وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِى الْمَدَآئِنِ حٰشِرِينَ (٢) * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقٰتِ (٣) يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَآ أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ (٤) فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغٰلِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ (٥) مَا يَأْفِكُونَ (٦) * فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ * قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهٰرُونَ * قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلٰفٍ (٧) وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ (٨)، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٩) * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطٰيٰنَآ (١٠) أَنْ كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * ﴾.

---

(١) أرجئه : أخره . (٢) جامعين . (٣) الوقت المحدد للفعل . (٤) بقوة . (٥) تبتلع . (٦) ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى . وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك . (٧) يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى . (٨) لا ضرر . (٩) راجعون فى الآخرة . (١٠) ذنوبنا .

خروجُ بنى إسراءيل من مصر، وغرقُ فرعونَ وجندِه :

من حين إيمان السحرة اشتدت وطأة فرعون على بنى إسراءيل، وعظمت نكايته (١) فيهم، وتنكيله (٢) بهم، حتى ضجوا (٣) بالشكاية إلى موسى، بل بتقريعه (٤)، فأمره الله بالسير بهم ليلا، قال تعالى فى سورة الشعراء (٥٢ — ٦٦) :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ (٥) بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ (٦) قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ (٧) * فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا (٨) ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ، إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ (٩) ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا (١٠) ثَمَّ (١١) ٱلْـَٔاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ *﴾.

بلادة وحمـــق :

بعد هذا الحادث العظيم : حادث انفلاق البحر، وإنقاذ الإسراءيليين من مخالب الفناء — بعد تلك الآية الكبرى التى كان يجب ألا تغيب عن أذهانهم، وكان يجب ألا يفكروا بعدها إلا فى الله وعظمته وقدرته — بعد مجاوزة البحر وقبـل أن يزول

(١) النكاية كثرة القتل والجراح . (٢) التنكيل أن توقع بعدوك من الآلام والإيذاء ما يجعله عبرة لغيره . (٣) فزعوا . (٤) لومه . (٥) سر بهم ليلا . (٦) طائفة . (٧) مستعدون . (٨) رأى كل منهما الآخر . (٩) الطود : الجبل الشامخ . (١٠) قربنا . (١١) هناك .

أثر ثراه (١) عن أقدامهم، مروا على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهـاً كما لهؤلاء آلهة، فيا للحمق و بلادة الطبع و جمود الفكر! قال تعالى فى سورة الأعراف (١٣٨ — ١٤١):

﴿وَجَـٰوَزْنَا (٢) بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ (٣) عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ . قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ (٤) مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ (٥) إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ (٦) سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ (٧)، يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ . وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ *﴾ .

الطيبات من الرزق :

طَلَبَ قومُ موسى منه بعـد مجاوزة البحرِ المـاءَ والطعامَ والظِّل، فأجيبوا إلى طلبهم على الوجه المذكور فى قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَـٰهُ (٨) قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ، فَٱنۢبَجَسَتْ (٩) مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . وَظَلَّلْنَـا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَـا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ، كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُـوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٠) *﴾ .

(١) الثرى : التراب الندى، والمراد به هنا الرمل الندى . (٢) عبرنا . (٣) يقيمون على عبادتها . (٤) مهلك من التبار وهو الهلاك . (٥) أطلب لكم . (٦) يكلفونكم ويحملونكم و يذيقونكم . (٧) أشد العذاب . (٨) طلبوا منه السق . (٩) فانفجرت . (١٠) سورة الأعراف (١٦٠) .

غمـــط النعمـــة[1] :

أنعم الله على بنى إسراءيل بغذاء طيب، وطعام شهى : ذلك هو المنّ الذى يشبه العسل : ينزل على أوراق الأشجار فيجنونه كما يُجْنَى العسل من الخلايا، ومـع المن السلوى : وهـو طائر كالسُّمَانَى تتناوله أيديهـم حينما يشاءون لكثرته . ولكنهـم لم يطيقوا البقاء على هذا النوع العظيم من الغذاء، وطلبوا من موسى الطعام الأدنى الذى يلائم طبائعهم التى جبلت على الذلة والصغار، فأجابهم موسى بأن هذا الطعام الأدنى لا يوجد إلا فى الأمصار : حيث المزارع والحقول، بجدوا فى المسـير حتى تهبطوا إحداها، وتنال نفوسكم مناها، ولكن لا حياة لمن تنادى .

نقرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة (٦١) :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا[2] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ[3] بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ . ٱهْبِطُوا[4] مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ[5] عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ[6] وَٱلْمَسْكَنَةُ[7] وَبَآءُو[8] بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

غبـاوة وغفـــلة :

ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، فصنع السَّامِرِىُّ[9] لقومه من حُلِيِّهِمْ عجلاً، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى، فعبدوه على رغم نصح هارون لهم، وقد أخبر الله

(١) احتقارها وعدم شكرها . (٢) قمحها، ثومها، حبوبها . (٣) أقل وأخس .
(٤) انزلوا . (٥) جعلت عليهم وألزموها . (٦) الذل والهوان . (٧) فقر النفس .
(٨) رجعوا . (٩) رجل من قوم موسى صنع لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه .

موسى بذلك فرجع غاضباً حانقاً . اقرأ ذلك فى قول الله تعالى فى سورة طه (٨٣ – ٩٨) :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا(١) قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا(٢) . قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا . أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى * قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا(٣) وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا(٤) مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا أَمْرِى * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ(٥) عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ(٦) حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى * قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ(٧) بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ(٨) لِى نَفْسِى * قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ(٩) وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ

---

(١) ابتلينا . (٢) شديد الحزن . (٣) بقدرتنا وأمرنا . (٤) أثقالا .
(٥) سنستمر . (٦) مقيمين على عبادته . (٧) تنتظر . (٨) زينت .
(٩) لا تمسنى ولا تقربنى .

الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْـهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّـهُ(١) ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ(٢) فِى الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا * ﴾ .

جبن وضعف إيمان :

دعا موسى عليـه السلام قومه إلى دخول الأرض المقدّسـة، فحاوروه محاورة الجبان الذى ملأ الرعبُ نفسَهُ ، وأخذ قلبه، من ضعف إيمانه بالله وفقد الثقة به، فأسَفَ ذلك موسى ، وآلمه ألمًا شديدًا حمله على أن يسأل الله أن يُفرِّق بينه وبين هؤلاء القوم الذى توالت عليهم النِّعم ، وتعدّدت لهم الآيات ، فلم يتخلوا عن رديء الصفات وقبيح العادات . ترى ذلك فى قوله تعالى فى سورة المـائدة (٢٠ — ٢٥):

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَـآءَ وَجَعَلَـكُم مُّلُوكًا وَءَاتَـٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ * يَـٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ(٣) الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَـكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا(٤) عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ * قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ(٥) وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ . وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَـآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ(٦) بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَـوْمِ الْفَـٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ(٧) فِى الْأَرْضِ . فَلَا تَأْسَ(٨) عَلَى الْقَوْمِ الْفَـٰسِقِينَ * ﴾ .

(١) دمت . (٢) لنذرينه فى هواء البحر . (٣) المطهرة . (٤) ولا ترجعوا منهزمين خوف العدو . (٥) أقوياء عظام الجسم ، متغلبين . (٦) فافصل . (٧) يتحيرون . (٨) فلا تحزن .

ما حل بسيدنا موسى عليه السلام من الإيذاء :

كان فرعونُ وقومُه بعتوِّهم واستكبارهم لا يفترون عن إيذاء سيدنا موسى ، وكان بنو إسراءيل بغباوتهم وغفلتهم وجمود فكرتهم لا ينون عن إلحاق الالام به ، وهاك شيئاً من ذلك :

(١) رماه فرعون وقومه بالسحر والجنون والكذب ، وهدّدوه بالقتل ، وفى الآيات السابقة ما يرشدك إلى الكثير من ذلك ، وقد عاقبهم الله تعالى بكثير من أنواع العقاب : تراها فى قوله تعالى فى سورة الأعراف (١٣٠ — ١٣٦) :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ (١) وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ (٢) لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ (٣) قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ (٤) يَطَّيَّرُوا (٥) بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ (٦) عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ (٧) وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ (٨) وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ (٩) فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ (١٠) قَالُوا يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١١) * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ * ﴾ .

---

(١) عاقبنا . (٢) القحط والجدب . (٣) الخصب والسعة . (٤) جدب وبلاء . (٥) يتشاءموا . (٦) شؤمهم . (٧) ماء طغى عليهم أو وباء عمهم . (٨) السوس أو نوع من القراد ، أو صغار الجراد . (٩) مبينات ظاهرات . (١٠) الرجز : العذاب . (١١) ينقضون عهدهم .

(٢) سام فرعونُ وقومُه بنى إسراءيل سوءَ العذاب ؛ فأفرطوا فى اضطهادهم وبالغوا فى قتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، قال تعالى فى سورة الأعراف (١٢٧) :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ . قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١) * ﴾ .

(٣) وكان قوم موسى يُنْحُون (٢) عليه باللائمة والتقريع، مظهرين له عدم الفائدة من إرساله ؛ فالعـذاب الذى كان يحل بهم، ويُصَبُّ عليهـم قبل مجيئـه استمر بعده، وكان هو يُصَبِّرهم ويصْبِرُ على تأنيبهم .

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (٣) * ﴾.

(٤) رماه قومه بالعيوب الجسمية والخُلُقية فبرأه الله من جميعها، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله فى سورة الأحزاب (٦٩) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا . وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٤) * ﴾ .

(٥) والحق أن سلسلة إيذاء بنى إسراءيل لسيدنا موسى لم تنقطع طوال بقائه بينهم : فمن قولهم لما عبروا البحر، ومروا على قوم يعكفون على أصنامهم : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾، إلى قولهم : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾،

(١) قادرون غالبون . (٢) يقبلون .

(٣) سورة الأعراف (١٢٨ — ١٢٩) . (٤) ذا منزلة سامية .

إلى عبادتهم العجل حينما ذهب يناجى ربه ، إلى قولهم : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . ذلك وغيره كان يصيب سيدنا موسى عليه السلام من بنى إسرائيل ، وهو مُتَحَلٍّ[1] بالصبر والجلد ، لا يألو جهدًا فى نصحهم و إرشادهم ، طالبًا إليهم العدول عن غوايتهم وأذيتهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ[2] . وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ[3] * ﴾ .

٦ — عيسى عليه السلام

بشرى :

نبتت السيدة مريم نباتاً حسنا ، ونشأت نشأة صالحة ، ولما بلغت مبلغ النساء رأت — فى إحدى خلواتها — منظرًا فَزِعَتْ منه ، واضطربت له : رأت فتى جميل الطلعة ، حسن الهيئة يدنو منها ، فَتَوَجَّسَتْ منه شرًّا ، وظنت أنه يريد بها سوءًا ، فاستعاذت بالرحمن منه ، وذكرته بتقوى الله ، لعله يخشاه ، فذكر لها أنه جبريل أرسله الله ليهب لها غلاما طاهرا ؛ فتملكها العجب ، واستبعدت أن يكون لها ولد وليس لها زوج ، وليست بغيا ، فذَكَّرها بعظيم قدرة الله الذى يقول للشيء كن فيكون ، وأن ابنها هذا سيكون آية من آيات تلك القدرة الباهرة : يكلم الناس فى المهد وكهلا ، وسيكون ذا دراية ، ورسول هداية ، إلى بنى إسراءيل الذين ضلوا سواء السبيل .

---

(١) لا يترك . (٢) فلما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عن الهدى .

(٣) سورة الصف [٥] .

وبعد هـذا الحديث الذى طَيَّبَ من خاطرها، وأفرخ[(١)] من روعها — نفخ سيدنا جبريل فى جيب درعها . ترى ذلك جلياً :

(ا) فى قوله تعالى فى سورة مريم (١٦ — ٢١) :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ[(٢)] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا[(٣)] فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا[(٤)] فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا[(٥)] * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا[(٦)] * قَالَتْ أَنَّىٰ[(٧)] يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا[(٨)] * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .

(ب) وفى قوله تعالى فى سورة آل عمران (٤٥ — ٤٦) :

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ[(٩)] وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ، قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ *﴾ .

حمـــل وولادة :

حملت السـيدة مريم فى اللحظة التى نفخ الملك فى جيب درعها ، وإنه لحمـل غريب، لكنه ليس ببعيد على قدرة الله تعالى الذى أراد أن يكون هـذا الحمل آية

(١) أذهب خوفها . (٢) اعتزلت . (٣) سـترا . (٤) جبريل .
(٥) تام الخلق . (٦) طاهرا صالحا . (٧) كيف . (٨) فاجرة .
(٩) طفلا صغيرا ورجلا كبيرا .

عظيمة لقدرته العظيمة، فكان كما أراد، ولا معقب لإرادته . حقًّا إن ذلك الحمل الغريب ليس بعزيز على من خلق السموات والأرض وما فيها من كواكب ثابتة لا تُزَحْزَحُ عن محالها قَدْرَ ذرّة، وأخرى سائرةٍ فى أفلاكها لا تحيد عنها قيد أنملة. وإن كان خَلْقُ عيسى بلا أب عجيباً، فقد خلق الله من قبله آدم بلا أب وبلا أم :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

ولما آن أوان الوضع ألجأها المخاض إلى جذع نخلة لتستتر به، وتعتمد عليه.

تفكيرٌ وتدبير :

تذكرت السيدة مريم حينما أخذها المخاض أنها سَتُرْمَى من قومها بجريمة شنيعة، وسيصمونها[2] بوصم شائن، فانتابتها الهواجس، واعتورتها الهموم والوساوس مما سيقابلها به من لا يعرف براءتها، ولا يتحقق طهارتها، وتمنت حينئذ أن لو كانت لقيت مَنِيَّتها قبل هذا، أو كانت شيئاً لا يذكر لتفاهته، أو يُنْسَى لحقارته، فطمأنها سيدنا جبريل، وأمرها أن تَهُزَّ جِذْعَ النخلة، فيسقطَ عليها الرطب، فتأكلَ هنيئاً، وتشرب من السَّرِيِّ الذى تحتها مريئاً، وتطيب خاطرًا، وتهدأ بالًا، وعلمها بأنها إذا قابلها من يلومها، أو يعيرها، أو يسألها عمن تحمل، ومن أين أتت به — لا ترد جوابًا، ولا تدفع لومًا، بل تقول : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً ﴾ .

اقرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة مريم (٢٢ — ٢٦) :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً * فَأَجَاءَهَا[3] الْمَخَاضُ[4] إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْياً[5] مَّنسِياً * فَنَادَٰهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ

(١) سورة آل عمران (٥٩) . (٢) سيعيبونها . (٣) ألجأها .
(٤) وجع الولادة . (٥) شيئا متروكا لا يعرف ولا يذكر .

ربُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(١) * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢) * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا(٣) فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * ﴾ .

تهمـــةٌ وبراءةٌ :

فلما وضعت السيدة مريم وليدها ، وأتت به قومها تحمله — فزعوا لهذا الخطب الأليم ، والحدث العظيم ، وانهالوا(٤) عليها بالســخرية والتقريع ، على ما أتت من منكر شنيع ، وإثم فظيع ، ولم يحل بينهم وبين ذلك ما كانوا يعلمون من طهارة مَنْبِتِهَا ، وطيب نشأتها ، وكرم بيئتها ، بل كان كرم أبيها وأمها ، سبباً فى شدّة لومها ، وكلُّ ما عملته السيدة مريم إزاء هذه العاصفة أنها اعتصمت بوصية جبريل عليه السلام : فلزمت الصمت ، وأشارت إلى ابنها فى المهد طالبة إليهم أن يكلموه ، فاشتد غضبهم ؛ لاعتقادهم أنها تهزأ بهم ؛ إذ لم يَعْهَدُوا طفلًا يتكلم فى المهد ، ولكن سيدنا عيسى أسرع إلى براءة أمه ، وقطع ألسنة السوء ، بما تقرؤه فى هذه الآيات القرآنية الكريمة من سورة مريم (٢٧ — ٣٣) :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٥) * يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ(٦) مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ(٧) وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي

(١) السرى : الجدول : وهو النهر الصغير . (٢) الجنى : الثمر الذى جنى من ساعته والجنى أيضا الغض الطرى . (٣) امتناعا عن الكلام . (٤) تتابعوا . (٥) عجيبا ، عظيما ، منكرا .
(٦) ياشبيهة هارون فى العفة ، وكان رجلا صالحا . (٧) قبح وفساد .

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي(١) بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا(٢) شَقِيًّا(٣) * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ﴾.

الرِّسَالَةُ وَآيَاتُهَا(٤) :

حاد(٥) بنو إسراءيل عن القصد، وجاوزوا الحدّ، وضلوا الطريق السّوى(٦) :

﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * ﴾.

انغمسوا فى الشهوات، وأفرطوا فى اللذات، واستغرقوا فى جمع المال من حِلّه ومن غير حله، واستباحوا المحرمات؛ فحرّم الله عليهم كثيراً من الطيبات : قال تعالى فى سورة النساء (١٦٠، ١٦١) :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا(٧) حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ(٨) عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا(٩) لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ﴾ .

وقد جعل الله سيدنا عيسى لقدرته آية، وأرسله لهؤلاء القوم رحمة، يعصمهم من نزغات الشيطان ، ويسيرهم فى سبيل الرحمن، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام ، ويُحِلّ لهم بعض الذى حُرِّمَ عليهم، وأيده بالمعجزات ، والآيات البينات .

(١) محسنا إليها . (٢) متكبرا . (٣) عاصيا . (٤) علاماتها وأدلتها .
(٥) مالوا وبعدوا . (٦) الرشد . (٧) هم اليهود . (٨) وبمنعهم .
(٩) أعددنا .

تأمل ذلك فى قوله تعالى فى سورة آل عمران (٤٩ — ٥١) :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ (١) وَالْأَبْرَصَ (٢) وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * ﴾ .

المائدة (٣) :

رأى بنو إسراءيل هذه الآيات القاطعة الدلالة على صدق عيسى عليه السلام ، والتى تبدد بنور يقينها غياهب (٤) الشك ، وتبعث بعظيم أثرها الاطمئنان إلى القلب ، ولكنهم مع ذلك تعنتوا (٥) — وما عهدناهم إلا متعنتين — فسألوا عيسى سؤالًا هاله (٦) وآلمه : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ؟ ﴾ .

تألم سيدنا عيسى من هذا السؤال؛ لأنه — مع صدوره من أنصاره الذين يعتبرون أرسخ القوم قدما فى الإيمان — يدل دلالة واضحة على زعزعة إيمانهم ، وضعف ثقتهم ، وعدم اعتدادهم بكل ما أقامه من حجج ظاهرة ، ومعجزات

---

(١) الذى ولد أعمى . (٢) الذى ابيض ظاهر بدنه لفساد مزاجه .

(٣) الطعام ، والخوان عليه الطعام . (٤) الغياهب ، الظلمات الشديدة . (٥) تعنتوه : أدخلوا عليه الأذى . (٦) أفزعه .

باهرة . هذا ما فهمه سـيدنا عيسى من خلال سؤالهم ، وهـذا ما آذاه من ذلك السؤال، فـ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * ﴾ .

فأتوا فى إجابتهم بمـا يحقق ما فهمه فيهم سيدنا عيسى: من عقيدة غير وطيدة[(١)]، وقلوب خاوية[(٢)] من الإيمـان ، ونفوس شرهة إلى ملء البطون :

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ * ﴾ .

فلم يَسَعْ سيدَنا عيسى إلا أن يضرع إلى الله أن يُنْزِلَ مائدة تملأ بطون هؤلاء الشرهين، وتكونُ آية على كمال قدرة الله وصحة رسالته :

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ * ﴾ .

فأجاب الله دعوته ، وحقق طَلِبَتَـهُ ، متوعدًا من يكفر بعد إنزالهـا بعذاب شديد ليس له نظير :

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ * ﴾[(٣)] .

تصديق المسيح بموسى عليهما السلام :

نرى خلال الايات السابقـة أن المسيح عليه السـلام كان يصـدق بموسى ، ويؤمن بتوراته ، و بدهى أنه كان بذلك يدعو بنى إسراءيل إلى أن يصـدقوا بمـا

(١) غير ثابتة . (٢) خالية . (٣) آيات المائدة فى السورة المسماة باسمها (١١٢-١١٥).

يصدق هو به، ويعودوا إلى العمل بالتوراة التي طرحوها وراءهم ظهريا؛ فالإنجيل دعوةٌ إلى التوراة، مع تغيير اقتضته سنّةُ التدرج البشرى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾، ولكن أهل الإنجيل قد تجافوا (١) عن إنجيلهم، كما هجر أهل التوراة توراتهم، وتناحر (٢) الفريقان، وصارا خصمين لدودين (٣) :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ . كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ﴾ (٤) .

تبشيره بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

كذلك قد بشر المسيح عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس للبشرى غرض إلا الدعوة إلى إجابة المُبشَّرِ به عند ظهوره، والإقبال على دينه إقبال المرء على تناول ما بُشِّرَ بِهِ بسرعة وسرور . قال الله تعالى فى سورة الصف (٦) :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * ﴾ .

وقد وُصِف النبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّتُهُ فى التوراة والإنجيل أوصافًا جلية : جعلت أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . قال تعالى فى سورة الفتح (٢٩) :

---

(١) تباعدوا . (٢) تشاحوا فكاد بعضهم ينحر بعضا . (٣) شديدى الخصومة .

(٤) سورة البقرة (١١٣) .

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ . وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ(١) فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ(٢) فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ(٣) فَآزَرَهُ(٤) فَاسْتَغْلَظَ(٥) فَاسْتَوَىٰ(٦) عَلَىٰ سُوقِهِ(٧) يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾ .

وبناء على هـذه الأوصاف الجليـة كان اليهود كثيرا ما يذكرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، وأنهم سيتبعونه وسينتصرون به على الكفار :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ(٨) عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *﴾(٩) .

رفع المسـيح :

شأن الاسراءيليين مع الأنبياء التكذيب أو القتل :

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ *﴾.

ولمـا رأى كَهَنَتُهُم ورؤساؤهم أن المسـيح يُظْهِرُ أمرهم، ويكشف سرهم : من بُعْـدٍ عن الحق، وهَجْرٍ للدين القويم، وحَيْدٍ عن الصراط المستقيم — تآمروا على قتله، وجدّوا فى طلَبه لصَلْبِـه : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * ﴾ ،

---

(١) يطلبون . (٢) علامتهم . (٣) فراخه . (٤) قوّاه وأعانه .
(٥) غلظ . (٦) قوى وقام . (٧) أصوله جمع ساق . (٨) يستنصرون على الكفار : يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان . (٩) سورة البقرة (٨٩)

فألقى الله مثاله، على من دبّر اغتياله، فصلبوه ظانين أنه المســيح، وما دروا أن الله تعالى قد نجى المسيح من كيدهم؛ فلم يقتلوه ولم يصلبوه .

وليس بعجيب أن يكون لعيسى عليه السلام من يقوى شبهه به، وتشتد مماثلته له؛ فقد ورد فى باب تحقيق الشخصيات من كتب الطب الشرعى حوادثُ كثيرةٌ تدل على أن الناس كثيرًا ما يخطئون فى معرفة بعض الأشخاص لقوة شبههم بغيرهم . على أن هذا الحادث من خوارق العادات التى أيد الله تعالى بها نبيه عيسى عليــه السلام؛ لينقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون .

وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم صريحا لا يحتمل التأويل :

(١) قال تعالى فى سورة النساء (١٥٧ و ١٥٨) .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ . وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ . وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا[1] حَكِيمًا[2] * ﴾ .

(٢) وقال تعالى فى سورة آل عمران (٥٤ و ٥٥) :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * ﴾ .

---

(١) قويا لا يغلب . (٢) أى متقن الصنع .

ومعنى «متوفيك» آخذك من بينهم لإنقاذك، وفسّر ابن عباس رضى الله عنه التوفى هنا بالإماتة العادية، كما فى قوله تعـالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾، فهى بشارة من الله لعيسى بنجـاته من القتـل الذى دبروه له؛ ليموت ميتة عادية .

ومعنى « رافعـك إلىّ » رافع منزلتك عنـدى لحسن بلائك، كما قال تعـالى فى إدريس عليه السلام : « وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا » ، ومن اصطفاه الله وقرّبه إليه يعجز الناس جميعا عن أن ينالوه بالأذى .

ومعنى « مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » منزهك من كل ما يرمونك به من السوء، أو يريدونه بك من الشر .

ومعنى قوله تعالى لعيسى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

أنّ من اتبع ما جئت به : من توحيد الله، والتمسك بالفضيلة، وحب الخـير للناس — تكون منزلته عنـد الله فوق منزلة الكافرين الذين عصوا أمرك؛ فضلوا سواء السبيل .

محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل

(١) عمــوم رســالته

قبيل البعثة المحمدية كانت دول العالم : من الصين والترك، والفرس والرومان — من الحـروب الخارجية والفتن الداخليــة فى دماء سائلة ، وقوى متخاذلة ، وترف وسرف بلغا بالملوك والأمراء والقادة ورؤساء الأديان غايةً من الإفراط ألجأتهم إلى إثقال كاهل الرعايا بالضرائب الباهظة ، وخُلِّى بين الأقوياء والضعفاء، فحرموهم أموالهم، وثمرات أَعمالهم؛ فعم الفقر والذل، واضطرب حبل الأمن، وخَيَّمت على العقول سحائب الخمول، وأسْدِلَتْ عليها حُجُبُ الأوهام والأباطيل ؛ إذ حرّم الرؤساء على الناس النظر فى أمر الدين ، وأوجبوا عليهم الاقتصار فيه على التلقى بلا تبيين ، فى الوقت الذى كان له من ينابيع الوثنية معين أىّ معين ؛ فثارت الشبهات على العقائد، وامتنع تمييز الصالح من الفاسد؛ فاختلط الدنس بالطهارة، واشتبه الصلاح بالدعارة، والتبس الشره بالقناعة، والتواضع بالوضاعة، وقد يُلْتَمَسُ رضا الله، بما تنفر منه شرائعه وتأباه ، ورزئ بعض الشعوب بمذاهب فوضوية زاد بها خطبها، واشتد كربها .

والعرب حينئذ فى حيرة ضالون ، وفى فتنة خابطون : قــد استهوتهم الأهواء، واسترلتهم[1] الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، فهم بين سفك دماء، وسبي نساء، ووأد ولائد[2]، وفساد عقائد، وأصنام منصوبة، وأموال مغصوبة .

---

(١) من الزلل وهو السقوط . (٢) الولائد جمع وليدة وهى الصبية ، ووأدها : دفنها حية .

هـذا إلى معاملات بفاحش الربا قلت منها الخيرات، ومُنِعَتْ الصدقات، وهُضِمَت حقوق الفقراء، وأُكِلَتْ أموال الناس بالباطل، وفشا الظلم، واختفت المجاملة، ونَضَبَ معين الشفقة والرحمة، وأغفلت حقوق الجوار، وفُصِمَت روابط الإخاء.

وبالإجمال كانت الروابط الاجتماعية عند جميع الأمم فى انحلال، والأخلاق فى فساد واعتلال، من فتن انقطع فيها حبل الدين، وتزعزعت أركان اليقين، واشتدّت الأهوال، وساءت الأحوال، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عُصِى الرحمن، ونُصِر الشيطان، وخُذِلَ الإيمان فى كل مكان، فانهارت دعائمه، وتنكرت معالمه :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ (١).

فالناس جميعاً حيارى فى زلزال، يتطلعون إلى من ينتشلهم من وهدة الضلال، ويبرئهم مما عم نواحى حياتهم من اختلال واعتلال.

وحالة الناس طرًّا تستدعى صيحة قوية تنبه الغافلين، وتزعج الظالمين، وتهبط بذوى الزعامة إلى صفوف العامة، ولا تفضل إلا المتقين.

وتتطلب روحًا قويًّا يحيا به أموات الذل والهوان، ويتخلص أسرى الازدراء والاستهزاء، ويُرَدُّ به الأقوياء عن السطو على الضعفاء.

(١) سورة الروم (٤١).

وتحتـاج إلى نور ساطع يكشف عن العقول ظلام الخرافات والأوهام؛ لتتبين الخير من الشر، والنافع من الضار، ويزيلُ عنها غياهب الجمود، فتفكر فيما بين يديها من الوجود؛ لتهتدى إلى معرفة الخالق المعبود .

وتستلزم نهجًا قويمًا يسلكه من حَيَّرتهمُ الشبهات، ويلزمه من أضلتهم الشهوات، وأَسَرَهُمْ قبيح العادات؛ ليصل بهم الى كل فضيلة، ويبعدَهم عن كل رذيلة .

فلما كانت حاجة الأمم قبيل البعثة إلى الإصلاح حافزة، لا فرق بين أمة وأمة، ولا بين ناحية وناحية — كانت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الأمم، موضحة نواحىَ الحياة كافة، شاملة جميع الفضائل التى بها سعادة الدارين .

وهاك بعضَ الأدلة النقلية على عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) قال الله تعالى فى سورة سبأ (٢٨) : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ﴾ .

(٢) قال الله تعالى فى سورة الأعراف (١٥٨) : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

(٣) قال تعالى فى سورة الأنبياء (١٠٧) : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * ﴾ . وفى أول الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * ﴾ .

والمراد بالعالمين : الإنس والجن ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهما معاً .

(٤) جاء فى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : كنا جلوسًا عنـد النبى صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليـه سورة الجمعة ، فلمـا قرأ

« وءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ » — قال رجل : مَن هؤلاء يارسول الله ؟ فلم يراجعه النبى صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا ، قال : وفينا سلمان الفارسى : فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » ، ولهذا قال مجاهد وغيره : هم الأعاجم ومن صدقه من غير العرب .

(٥) روى جابر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « أُعْطِيتُ خمسا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأُحِلَّتْ لى الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ؛ فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل حيث كان ، ونُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » رواه البخارى . وفى رواية « وبعثت إلى الناس كافة » .

(٦) وفى مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىٌّ ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أُرْسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار » .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء

جاء الإسلام والفساد عام ، والرذائل قائمة ، والفضائل متهدّمة ، والفوضى جاثمة ، والعقول محجوبة ، والحريات مسلوبة ، فلم يدع أصلا من أصول الفضائل إلا أقامه وَوَطَّدَه ، ولا ركنًا من أركان الصالحات إلا أسسه وشيده ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، ولا ناحية من نواحى الحياة إلا أوضح أمرها ، ولا حالة

من الحالات النفسية والعقلية إلا أبان حكم الله فيهـا ، ولا سبباً من أسـباب الرقى إلا أماط اللثـام عنه ، وحث على التعلق به ، ولا وجها من وجوه سعادة الدارين إلا أنار سبيله ، وحض على انتهاجه .

فاستجمع للإنسان حرية الفكر ، واستقلال العقـل ، وما به صلاح السجايا ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهـاض العزائم إلى العمل ، وسوقُهَا فى سبيل السعى . ذلك وكثير غيره من كل ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده — قرره :

﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ(١) ءَايَـٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ(٢) مِن لَّدُنْ(٣) حَكِيمٍ خَبِيرٍ * ﴾(٤) ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ(٥) * لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * ﴾(٦) .

تناوله الخلف عن السلف بالتواتر(٧) كما أنزل ، محفوظًا حفظًا تامًّا بألفاظه وحروفه وكيفية تلاوته و إلقائه .

أنزل هذا الكتاب على نبى أمى خِلالُه الخاصة والعامة معروفة ، وأعماله مدوّنة ، وأحاديثه مسطورة ، شاملة ما يحتاج إليه الناس فى دنياهم وأخراهم ، وأعماله مقرّرة ومصدّقة لأقواله ؛ فهى نبراس لبنى الإنسان ، يستضيئون به على مدى الزمان .

برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد تبين للجميع الرشد من الغىّ ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته الرحمة الإلٓهية لبلوغ الغاية من السعادة . فمجىء رسالة أخرى عبث وتكرير ، يتنزه عنهما الحكيم الخبير .

(١) أتقنت بعجيب النظم وبديع المعانى . (٢) بينت . (٣) من عند . (٤) سورة هود (١) . (٥) منيع غالب لكل باطل . (٦) سورة فصلت (٤٢) . (٧) نقله جماعة مستفيضة يؤمن اتفاقهم على الكذب لكثرتهم عن النبى صلى الله عليـه وسلم ونقـل عن هؤلاء مثلهـم ، وهكذا حتى وصل إلينا .

لهذا ختمت النبوّات بنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهت الرسالات برسالته، كما صرح بذلك الكتاب العزيز، وأيدته السنة الصحيحة .

(ا) قال الله تعالى فى سورة الأحزاب (٤٠) : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * ﴾ .

(ب) وفى مسلم عن أبى هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «مثلِي ومَثَل الأنبياءِ من قَبْلى كمثل رجل بنى بُنْيَانًا فأجمله وأحسنه إلا موضع لبِنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وُضِعَتْ هذه اللبنة، قال : فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» .

(حـ) ورَوَى الإمام مالك فى الموطأ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » قال ابن عبد البر : وهو حديث مدنى صحيح يدخل فيه الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم ليتمم ذلك كله .

(٣) صلاح الإسلام لكل مكان وزمان

بعد ما تبين من شمول رسالته صلى الله عليه وسلم جميعَ الأمم — يتضح لنا أن الإسلام صالح لكل مكان ؛ إذ لا يمكن أن يجتمع جميع الأمم فى صعيد واحد ؛ فلكل أمة بلادُها، وعادُها، وجِوَاؤُها، وماؤها، ونباتها، وحيوانها .

وبعد أن قام البرهان على أن النبى صلى الله عليه وسلم خَتَمَ النبيين، وتمم مكارم الأخلاق، وأخبر أنه لا نبى بعده إلى يوم القيامة — صار من البدهى أن دينه صالح لكل زمان .

فالدين الإسلامى صالح لكل مكان و زمان .

ولم لا يكون كذلك وقد قام بالأمور الآتية :

(١) أصلح العقائد بتوحيد الله واتصافه بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص، والإيمان بالبعث والجزاء، والدعوة إلى الأعمال الصالحة التى تُزَكِّى النفوسَ البشرية ، وتَغرِسُ فيها الميولَ الخيرية، وتَجْتَثُّ منها الميولَ الشرية، وبذلك آنتشل الناس من حضيض الرذائل، إلى أوج الفضائل .

(٢) خلَّص العباداتَ من شوائب الوثنية، وجعلها تتفق مع جلال الله وسُمُوِّه عن النظائر والأشباه، مع جمعها بين الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة، والمتانة واليسر، والاعتدال، وسهولة الفهم .

(٣) شَيَّدَ بناء المعاملات على قواعدَ كلية تُسْتَنْبَطُ منها جزئياتها ، على حسب عرف كل أمّة وعاداتها . وأقامها على أساس الفضائل : من صـدق، وصـبر ، وحلم، وصفح ، واتحاد، وتعاون على الخير، وعطف ورفق، ونصيحة و إخلاص.

(٤) أصلح الحكم بالعدلِ والشورى ، وحَظْرِ الظلم ،وجِدِّ أولى الأمر فى درء المفاسـد ، وجلب المصالح ، وطاعةِ أولى الأمر فيما ليس بمعصـية، والنصح لهم ومعاونتهم فى كل مايحفظ الأمن ، وينشر الطمأنينة على الأنفس والأعراض والأموال.

(٥) بَيَّنَ وجوه إنفاق المـال الفردية والاجتماعيـة ، الدنيوية والدينيـة بمـا لو اتبعه الناس ما شَكَوْا فقراً مدقعاً، ولا دَيْناً مفزعاً، ولا مذاهب متطرفة ، ولا مصلحة مضطربة، ولا أمناً مختلا، ولا إنساناً متعطلاً .

(٦) آثر السلم على الحرب، وأصلح نظام الأخيرة، ودفع مفاسدها، وقصرها على ما فيه الخير، وبين قواعدها : من دفع المعتدين، وإقامة الدين، والاستعداد لهـا لمنعها، والرحمة فيها، والوفاء بالمعاهدات الدولية، وتحريم الخيانة فيها، وجعل الجزية إنهاء للحرب، لا سبباً لقيامها .

(٧) منح النساء جميع الحقوق البشرية : من دينيـة ومدنية، وكانت المرأة عند جميع الأمم قبل البعثة يُشَكُّ فى إنسانيتها ؛ إذ كانت تُشْتَرَى وتبـاع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تُكره على الزواج والبِغاء ، وتورَث ولا تَرِث ، وتُمْلَكُ ولا تَمْلِك ، وكان أكثر الذين يملكونها يُحَرِّمُونَ عليها التصرف فيما تملكه بلا إذن الرجل، وللزوج أن يتصرف فى مالهـا دونها، إلى غير ذلك ممـا أنقذها منه الإسلام .

(٨) رفع الإسلام الظلم والإهانة عن الرقيـق ، ورَغَّبَ فى تحريره ، وشرع الوسائل لمنع تجديده، وأوجب الإحسان إليـه ، وحض على مساعدته إلى أن يتم تحريره ، وقرر أن المؤمنين إخوة ، وأنهـم كالجسد الواحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأنه لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض أو أحمر على أسود إلا بالتقوى .

*
* *

ذلك وكثير غيره تراه مبسوطًا فى القرآن الكريم، والحديث الشريف، بعبارات وأساليب تتناولها الأفهام، ومعانى تسابق الألفاظ إلى الأذهان ، ومقاصدَ تسارعُ العقول السـليمة إلى تصديقها بلا برهان؛ لأنها فى نبلها، وشرف غايتها لا تختص بمكان ولا زمان ، ولا بإنسان دون إنسان ، ممـا يدل على أن الإسلام دين الفطرة

السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والحجة والموعظة، والحرّية والاستقلال، وغير ذلك من كل ما فيه سعادة الدارين . فالدين الإســلامى بهذا جدير بأن يكون خاتمة الأديان وأن يبقى على مدى الزمان، لصلاحه لكل أمّة فى أى مكان .

٤ — طريقه صلى الله عليه وسلم فى دعوته

وسلوكه الطرق المعتادة فى استمالة الناس إليه

اقتضت إرادة الله تعــالى أن ينهض هــذا الدين بالعقل، ويسايرَهُ من أوّل خطواته ويدعُوَهُ إلى التفكير فى جميع أطواره، ويتدرّجَ بالعلم ويؤيدَه فى كل أدواره؛ فلم يلجأ إلى الأحداث الكونية التى تعلو الأفهام فترتاب أو تهيم فى ظلمات الحيرة، بل وافق السنن الطبيعية التى يسهل على العقول منالهــا، ولا يصعب عليها تعليلها .

لم يمتحنا بمــا تعيا العقول به   حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهِم

يظهر ذلك جليًّــا فى تتبــع الدعوة المحمــدية ، وتعرف طريقتها التى مرت بضروب من الأطوار، وظهرت بأنواع من المظاهر : أهمها الإسرار، ثم الجهر، مع أسمى وسائل الإقناع، والبراءةُ من دعوى الإلٰهية والملكية، ثم الهجرة، ثم الحرب، ثم عقــد المعاهدات، واستقبال الوفود، ومراسلة الملوك . وسَنُفْرِدُ بعون الله تعالى كل مظهر من هذه المظاهر بكلمة تبين مقاصده السامية، وحكمته العالية :

المظهرُ الأوّلُ — الإسرار بالدعوة

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ(١) * قُمْ فَأَنذِرْ(٢) * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ(٤) فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن(٥) تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ * ﴾(٦) .

أمر إلهى فصل بين عهدين للنبي صلى الله عليه وسلم : عهــد العزلة والهدوء ، وعهد الاحتكاك والجهاد .

أمر خطير ، ومهم شاق ، وطريق وعر ؛ فإن محمدا الهادئ المحبوب من الجميع يتقدّم إليهم مُسَفِّهًا أحلامهم ، عائبًا أصنامهم ، مُزَيِّفًا عقائدهم التى أَلْفَوا عليها آباءهم ، ومزجوا بها لحومهم ودماءهم . ولو جاءهم بذلك جهرة لقامت الثورة ، واستطار الشر ، وفسد الأمر ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان نظره بعيدًا ، ورأيه سديدًا ، هداه تدبيره إلى الأناة والروية فى دعوته ، فلم يبعثها صرخة عالية تهيج الجماهير ، وتهيئ لهم الفرصة ليكونوا إلْبًا(٧) عليه ، ويدا وحدة ضــدّ دعوته ، بل أرسلها هادئة فى سكينة ووقار ، وحذر وإسرار .

ومن البدهى أنه لم يوجهها إلى كل من صادفه ، بل عمــد إلى الصفوة ، الذين يطمئن إلى نقاء ضمائرهم ، وقــوّة عزائمهم ، ويَلْمَسُ منازع(٨) الخير فى قلوبهم ، ويثق بعلوّ نفوسهم ، وعظم مكانتهم فى قومهم ، ولذلك عنى بأن تُمثّل فيهم القبائل

---

(١) المتلفف بثيابه . أصلها المتــدثر أدغمت التاء فى الدال . (٢) خوف الكفار بالنار إن لم يؤمنوا . (٣) عظم . (٤) الرجز : العــذاب والغرض منه ما يوجب العذاب من عبادة الأوثان . (٥) لا تعط شيئا لتطلب أكثر منه . (٦) سورة المدثر (١ — ٧) .
(٧) جمعا واحدا . (٨) ميول .

والبطون تمثيلا صادقا؛ ليكون لهم من ذلك قوة،ويكونوا له نعم الأعوان إذا حزب[1] الأمر، ولزم الجهر .

ثم دأب على تصفية نفوسهـم من كدر الوثنيـة ، وصَقْل عقولهم من صـدإ الجاهلية ؛ ليكون منهم ساسة المستقبل الذين يسوسون الأمة بنفوس خيِّرة، وعقول نيّرة . وعَمِلَ على أن يبث فيهم من روحه وعزمه وحكمته وشجاعته حتى يكونوا له وللدين دروعًا متينة ، وحصـونًا حصينة . وما زال بهم يثقفهم ، ويمكن الإيمـان من قلوبهم، حتى أشْرِبوا محبته ، وذاقوا حلاوته ، فاستعذبوا العذاب فى سبيله .

لبث صلى الله عليـه وسلم فى هـذه الدعوة ثلاث سنين ، أسلم خلالهـا نَحْوُ الأربعين . بُطْءٌ فى الدعوة، وقلة فى العـدد ، ولكنه بطء فى روية وحزم ، وقلة فى قوة وعزم ، وليس ذلك وقتَ الكثرة ؛ لأنهـا لا تخـلو من عوامل الضعف ، وجراثيم الرجعية التى تؤثر فى الجماعات الناشئة ، فمن الحكمة أن يُعْنَى الزعيم باصطفاء أعوانه، ويهتم القائد باختيار أركان حربه، فلا يشرع كلاهما فى الجهر بما يريد حتى يروض أصحابه على احتمال المشاق، والتغلب على العوائق .

وهـذا شأنه صلى الله عليه وسـلم فيمن اختارهم : كانوا فى ذروة الشرف من قومهم، وفى نهاية القوة من إرادتهم وأخلاقهم، أسلموا ولم يكن معه صلى الله عليه وسلم سيف يَضْرِبُ أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يُرغب فيه، حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان كثير منهم أوسع منه ثروة؛ كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم .

(١) اشـــتد .

والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشاق مع اتباع الرسول ، ولو اتبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالًا وأنعم عيشًا . وإنمـا هى هداية الله غلبت عليهم ، ونور دينه سطع على أفئدتهم ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

المظهر الثـانى ـــ الجهـــر بالدعوة

مضى على الدعوة وهى سريةٌ مدّةٌ كافيـة لوضع أساس متين ، واختيار أعوان مخلصين : يؤنسون فى الوحدة ، ويساعدون فى الشـدّة ، ويكونون للمستقبل خير عُدّة ، فكان طبعيًا أن تُتْبَعَ هذه الخُطْوة بأخرى ، وأن تُسْتَبْدَل الجهريةُ بالسرية ، ولذلك نزل قوله تعـالى فى سورة الحجـر : ﴿فَاصْدَعْ(١) بِمَـا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أمْرٌ قوى بدعوة جهرية قوية ، ومشعر بمقاومة عنيفة :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَـا تُؤْمَرُ ﴾ تؤذن بقوة الدعوة ، لكنها قوة من الحجة البالغة ، والإيمان الثابت ، والعزيمة الصادقة ، والثقة العظيمة ، واليقين الراسخ ، وما إلى ذلك من الصفات التى كان صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم مثلا كاملا فى جميعها .

وتحسُّ عُنْفَ المقاومة من قوله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقد كانت المقاومة عنيفة جدًا ؛ لأنها فى مكة مباءة(٢) الأصنام ، ومعقل الوثنيين الذين يفتدون أوثانهم بأرواحهم ، ويتقربون إليها بدماء أبنائهم .

تقدّم ذلك الفرد الأعزل إلا من صفات العظمة ، يعيب فى صراحة أمّةً فى عقولها وعقائدها ومعبوداتها ، ويعلن بينهم كلمة التوحيد ، غير هياب ، ولا عابئ

(١) اجهر به وأمضه . (٢) ملجأ .

بمـا سيلاقى من صعاب ، فيطوف على الناس فى منازلهم : يدعوهم الى عبادة الله ، وهجر عبادة الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا .

وكأنه كان بهـذا الطواف يهيئهم لاجتماع عام : هو اجتماع الصفا الذى نادى فوقه بطون قريش فأسرعوا اليـه ، ومن لم يستطع أرسـل رسولًا ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ » ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليـك كذبًا ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ، فقال أبو لهب : تبًّا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله فى شأنه سورة : ﴿ تَبَّتْ(١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * ﴾ .

فأمره الله بمحاولة ثالثة : هى الاجتماع بأقاربه الأدنين : (بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى نوفل ، وبنى عبد شمس) أولاد عبد مناف ، قال تعـالى فى سورة الشعراء : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * ﴾ فجمعهم عليه السلام ، وقال لهم : « إنَّ الرَّائِدَ(٢) لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسـولُ اللهِ إليكم خاصةً ، وإلى النـاس كافَّةً ، واللهِ لَتَموتُنَّ كما تَنَامُون ، ولَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيقِظُونَ ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بمـا تعملون ، وَلَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا » .

فتكلم القوم كلامًا لينًا غير عمـه أبى لهب الذى كان خصمًا لدودًا ، فإنه قال : خذوا على يديه قبـل أن تجتمع عليه العرب ؛ فإن أسلمتموه ذَلِلْتم ، وإن منعتموه قُتِلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا . ثم انصرف أجمع .

(١) خسرت وهلكت . (٢) المرسل فى طلب الكلأ .

فهذه محاولات ثلاث فى سبيل الجهر بالدعوة : الطواف على المنازل، واجتماع الصفا ، واجتماع العشــيرة . وفيها كان أبو لهب يقابل النبي صلى الله عليــه وسلم بما يكره، و بما جرّأ عليه الأباعد، فسخرت منه قريش، وآذوه شديد الإيذاء .

وهذه المحاولات الثلاث — و إن كانت تبــدو فى ثوب الخذلان — تنطوى على نصر؛ فإنها قرعت أسماع القوم بالدعوة، وحملتهم على التحدّث عنها فيما بينهم، وعنــد من لم يحضرها ، وهيّأت النفوس للتفكر فيها، وكثيراً ما تَجُرُّ الفكرة الى أعظم عبرّة، كما هيأت نفوسَ عشـيرةِ النبي الأدنين للدفاع عنــه اذا دعت الحاجة، وقد حقق ذلك أبو طالب فى كل مناسبة .

العــرض على القبــائل :

ولمــا رأى النبي صلى الله عليه وسلم تَسَلُّطَ الغطرسةِ وحميةِ الجاهلية على قريش، وأراد الله إعزاز دينه على يد غيرهم — أخذ يخرج الى المواسم العربية (وهى أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ، و يعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسالة ربه، فكان بعضهم يَرُدُّ ردًّا مليحًا، و بعضهم يرد ردًّا قبيحًا .

وفى أحد المواسم تعرّض لنفر من عرب يثرب (المدينة) يَبْلُغُون الستة، فدعاهم الى الإســلام ، والى معاونته فى تبليغ رسالتــه ، فعرفوا أنه الرسول الذى أخبر به اليهود ، فأسلموا و وعدوه المقابلة فى الموسم المقبــل ، وفيه قدم اثنــا عشر رجلا فأســلموا، و بايعوا رسول الله على ألا يشركوا بالله شيئا، وعلى الســمع والطاعة لله ولرسوله، وأرسل معهم من يقرئهم القرآن، و يفقههم فى الدين .

وفى العام الذى ولى هـذا قدم من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، واجتمع بهم النبي صـلى الله عليه وسـلم ليلاً سراً ؛ حتى لا تشعر قريش ، فيسعوا فى نقض ما أبرم ، فقال لهم عليـه الصلاة والسـلام : أشترط لربى أن تعبـدوه ولا تشركوا به شيئا، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم، فبايعه الرجال على ما طلب، وتخير منهم اثنى عشر نقيبا؛ لكل عشـيرة منهم نقيب يكفلها .

وقد انتشر الإسلام فى يثرب انتشارا عظيما، حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإســلام .

المظهر الثـالث — وسائل الإقناع فى الدعوة

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ * ﴾ . فى سورة النحل (١٢٥) :

و بهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون شعاره فى دعوته ثلاثة أمور:

(ا) الحكمة — وهى الحجج البالغـة، والأدلة الدامغـة، التى تنير الحق، وتبدّد ظلام الباطل، ولا تدع مجالا للشك والشبهة . وهـذه طريقة إقناع العلماء والحكماء ، والطبقة المستنيرة .

(ب) الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ — وهى النصيحة الممزوجة بالترغيب والترهيب، والتحذير والتبشير ، فى أسـلوب يشعر المنصوح له بالصـدق والإخلاص، وقصد النفع . وهـذه طريقة إقناع الذين لم يرتفعوا إلى درجة العلمـاء والمستنيرين ، ولم ينزلوا إلى درجة المعاندين والمشاغبين .

(حـ) المجـادلة بالحسنى — وهى إقامة الحجة فى هدوء ودَعَة، والمناظرة بالرفق واللين . وهذه وسـيلة إقناع المعاندين والمعارضين؛ لأنها أجذب لقلوبهم، وآثر فى نفوسهم، وأخمد لثورة غضبهم وأنفتهم .

فالنبى صلى الله عليه وسلم قَرَع القوم بالحجج العقلية ، والأدلة الفكرية ، متدرعا بالموعظة الحسنة، متوسلًا بأحسن وسائل المناظرة، وأعظمها أثرًا فى استمالة المنَاظِر، مستمدًّا ذلك كله من القرآن الكريم . وهاك بعض الأمثلة على ذلك :

١ — طَالَبَهُــمْ بِتَوحِيــدِ اللهِ :

(أ) ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * ﴾ .
سورة البقرة (١٦٣)

(ب) ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * ﴾ . سورة النحل (٥١)

٢ — وَبرهَنَ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ بِأَقْطَعِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ :

(أ) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * ﴾ . سورة الأنبياء (٢٢)

(ب) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * ﴾ . سورة الاسراء (٤٢و٤٣)

(حـ) ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . سُبْحَانَ[1] اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * ﴾ .
سورة المؤمنون (٩١)

---

(١) أنزه الله وأبرئه من كل نقص وسوء .

٣ — دعاهُمْ الى إعمَالِ الفِكرِ، وتوجيه النظَرِ، الى ما فى الكون من عِبَرٍ، ليصلوا بذلك الى معرفة المبدع القادر الجدير وحده بالعبادة :

(أ) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *﴾ .

سورة البقرة (١٦٤)

(ب) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوا(١) إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ(٢) وَأَلْوَٰنِكُمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ . ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ *﴾ .

سورة الروم (٢٠ — ٢٥)

---

(١) تألفوها وتميلوا إليها . (٢) لغاتكم .

٤ — مُوازنةٌ :

وازَنَ لهم موازنة عقلية بين آلهتهم و بين الله تعالى : يَخرُجُ منها مَنْ عنده أدنى بصيرة بتوحيد الخالق جل شأنه :

(ا) قُلْ هَـلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ . قُلِ اللَّهُ يَهْـدِى لِلْحَقِّ . أَفَمَن يَهْـدِىٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِـدِّىٓ(١) إِلَّآ أَن يُهْـدَىٰ ، فَمَـا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * ﴾ . سورة يونس (٣٥)

(ب) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَـلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِـهِ . قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ، عَلَيْـهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ * ﴾ . سورة الزمر (٣٨)

(حـ) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَـٰوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ(٢) مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * ﴾ .

سورة الأحقاف (٤ ، ٥)

٥ — ولمـا احتجوا بأنهم يجرون على سَنَن الآباء قَبَّحَ هذه المحاكاة العمياء :

(ا) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * ﴾ . سورة البقرة (١٧٠)

---

(١) لا يهتدى . (٢) بقيـــة .

(ب) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * ﴾ . سورة لقمان (٢١)

(حـ) ﴿ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ (١) وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ (٢) إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * ﴾.

سورة الزخرف (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤)

ـــ ولَمَّا أنكروا البعث أقام لهم البرهان ساطعًا :

(١) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٣) * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ﴾ .

سورة يس (٧٨ — ٨٣)

(ب) ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (٤) * بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ * بَلْ كَذَّبُوا

(١) مـــلة . (٢) متنعموها . (٣) باليـة . (٤) الكريم .

بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (١) * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٢) * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ (٣) وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٤) * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٥) * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ (٦) لَّهَا طَلْعٌ (٧) نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ * ﴾ . سورة ق (١ — ١١)

٧ — وعاب عليهم ظنهم :

(١) ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا . إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * ﴾ . سورة يونس (٣٦)

(ب) ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ (٨) . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ . سورة النجم (٢٣)

٨ — وطالبهم بإقامة البرهان على ما يدّعون :

(١) ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * سورة البقرة (١١١) وسورة النمل (٦٤)

(ب) ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (٩) * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ (١٠) فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * سورة الأنعام (١٤٨ ، ١٤٩)

---

(١) مضطرب . (٢) شقوق . (٣) جبالا (٤) سار لحسنه .
(٥) راجع الى طاعتنا . (٦) طويلات . (٧) الطلع : أول ما يبدو من الثمر ويكون بعضه فوق بعض . (٨) حجة وبرهان . (٩) تكذبون . (١٠) التامة .

(حـ) ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * ﴾ .

سورة الأنبياء (٢٤)

هـذا قُلٌّ من كُثْر، وقطرة من بحر، من وسائل الإقناع فى الدعوة الإسلامية فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت حجته وعظته وجداله بالقرآن الكريم ، فهو الحجة التى تبهت الخصم العنيد، وهو الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وخير وسائل المناظرة، التى لاتجدى معها المغالطة ولا المكابرة . ولا غرو فالقرآن هو الدعوى والبرهان ، والمعجزة الباقية مابقى الزمان .

المعجـزة والدعوة الإسـلامية :

بالقرآن لم يكن النبي صـلى الله عليه وسـلم فى حاجة تلجئه إلى مافوق مقـدور الإنسان كما فعل من قبله من الأنبياء : إذا أعوزتهم الحيـل أنقذتهم المعجزات ، ولو أنه التجأ إلى المعجزات فى كل أمر حزبه لتعـذر على مَنْ بَعْـدَهُ الاقتداء به ؛ لانقطاع صلتهم بالمعجزات، ولكنه قد توسل بأنبل الوسائل وأصرحها ، وتذرع بأشرف الذرائع وأوضحها ؛ فكانت سيرته صلى الله عليه وسلم درسًا نافعًا ، ووسائله نورًا ساطعًا، وسبيله نهجًا جدّ منيف، وعمله قدوة لمن يحب أن يدركوا مقاصدهم بالكفاح الشريف .

نعم إن للنبي صلى الله عليه وسلم من المعجزات مايوازى معجزات جميع الأنبياء أو يزيد : ولكنها لم تكن لإثبات رسالته ، بل كانت رحمة من الله بأمته : كنصر

الجيش القليل العَددِ والعُدَدِ على الكثير فيهما ، وتكثير الشراب والطعام ، وشفاء الأسقام، وتسخير الغمام ؛ للشرب وتثبيت الأقدام .

وأما انشقاق القمر فقد طلبه الكفار تعجيزًا له صلى الله عليه وسلم، ولمـا تمت هـذه المعجزة أعرضوا وقالوا « سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» وأقاموا بذلك البرهان على إصرارهم على الكفر والطغيان، ولذلك لمـا قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (١) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٢) * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ (٣) أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ .

لمـا قالوا ذلك وكان تعنتهـم واضحًـا ، وعنادهم صريحًا ، وتعصُّبهم قبيحًا . أمره الله أن يقول لهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * ﴾ (٤) .

المظهر الرابع — البراءة من دعوى الإلٓهيـة أو الملكية

كان النبي صـلى الله عليـه وسـلم فى كل طور من أطوار دعوته ينتهز الفرص لإعلان براءته من دعوى الإلٓهية أو الملكية؛ حتى لا يتسرب إلى النفوس أو يتطرق إلى الأذهان، أو يلتبس على بعض العقول — أنه يدعى إلٓهيـة، أو يطلب مُلكًا، أو يتطلع إلى ثروة، أو يبتغى أجرًا على دعوته .

وفى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ما يرشد الى ذلك و يجليه .

---

(١) قطعا . (٢) عيانا . (٣) ذهب . (٤) سورة الإسراء (٩٠ — ٩٣) .

(أ) قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ . قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ . أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * ﴾ . سورة الأنعام (٥٠)

(ب) وقال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ.وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ . إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * ﴾ . سورة الأعراف (١٨٨)

(حـ) وقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ . سورة الكهف (١١٠)

(د) وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * ﴾ . سورة سبأ (٤٧)

(هـ) وقال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ . سورة الشورى (٢٣)

وقد خيره الله بين أن يكون نبياً مَلِكًا أو نبيًا عبدًا فاختار الثانى .

(أ) قال صلى الله عليه وسلم : « لا تُطْروني كما أَطْرَت النّصارى ابنَ مريم ، إنمـا أنا عبد الله، فقولوا : عبد الله ورسوله » .

(ب) وخرج صلى الله عليه وسلم مرة على أصحابه متوكئًا على عصا فقاموا ، فقال : « لا تقوموا كَما يَقوم الأعاجم : يعظم بعضهم بعضًا » .

(حـ) وقال : «إنمـا أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» .

(د) وعن أبى هريرة رضى الله عنه : دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم، فاشترى سراويل،وقال للوازن : «زن وأرجح» ثم قال: فوثب إلى يد رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله ، فقال : «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله» .

(هـ) جاءه رجل يرتعد خوفًا يوم فتح مكة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «هوِّن عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]» .

من ذلك يتضح أنه صلى الله عليه وسلم كان فى دعوته يفرّ من مظاهر الأبهة ، ولا ينزع إلى وسائل الإغراء ، بالملك او الجاه أو الثراء ، بل جرّد نفسه من كل ما يستمال به الناس ، أو يفهم منه أنه فوق مستوى البشر .

المظهر الخامس

٥ — هجرته صلى الله عليه وسلم

الوسائل التى اتخذها فى ذلك ، وحسن حيلته

أثرت مبايعةُ الأنصار النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى قريش تأثيرا بعيد المدى ، أليم الوقع ، ورأوا أن إيذاءهم له ولأصحابه على شدّته وإغراقهم فيه لم يَحُل دون المضى فى بث الدعوة وانتشارها ، فاجتمعوا فى دار الندوة للنظر فى ذلك الأمر الذى روّعهم ، وأقض مضجعهم[2] ، وبعد تبادل الآراء اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة شابا شجاعا ويَرْصُدُه[3] هؤلاء الشبانُ حتى ينامَ فيثبون عليه ، أو يخرج من داره فيهجمون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرّق دمه بين القبائل ؛ فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له ، فيقبلون الدية .

---

(١) اللحم المشرح طولا . (٢) أقلقهم جدّا . (٣) يرقبه .

فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، وبالليلة التى عزموا على إنفاذ فَعْلَتِهِمْ فيها، وأَمَرَه بالهجرة إلى يثرب فى تلك الليلة، فأمر الرسولُ عليّ بنَ أَبى طالب بالنوم فى فراشه، وغطاه ببردته، إيهاما للقوم بأنه ما زال فى فراشــه، وقَبِلَ علىٌّ كرم الله وجهه هــذه التفدية بغبطة وشجاعة، وبقى النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى المنزل حتى أرخى الليل سدوله(١)، ورانَ(٢) الكرى على أجفان الراصدين، فخرج ونثر على رءوسهم التراب، وذهب إلى حيث التقى بأبى بكر رضى الله عنه، وساراً حتى بلغا غار ثور .

ولمـا علم المشركون بخيبــة تدبيرهم ، وفساد مكرهم، ثارت ثائرتهم ، وهاجت عاطفتهم فطلبوه بمكة : أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة(٣) فى إثره فى كل وجه، وجعلوا مائة ناقة لمن يردُّه، فوجد الذين ذهبوا قِبَلَ ثور(٤) أثره هنالك، فلم يزالوا يقتفونه حتى انقطع عنــده، فاستبعدوا أن يكون دخل الغار ؛ لوجود نسج العنكبوت وبيض الحمـام على بابه ، وصرف الله أبصارهم عن النظر فى الغار، مع أن الواحد منهــم لو نظر تحت قدميه لرآهما .

وروى أن ســيدنا أَبا بكر لمـا رأى القافة اشتدّ حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قُتِلْتُ أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتِلْتَ أنت هلكت الأمة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

وفى صبح اليوم الثالث جاءتهما الراحلتان فركبا إلى المدينة من طريق الساحل، وهو طــريق غير مألوف ، ونجاهما الله من القوم الظالمين، وقابلهما أهل المدينــة بأعظم ترحيب .

---

(١) ستوره : ظلماته . (٢) غطى النوم . (٣) جمع قائف : وهو من يعرف الآثار، وقاف أثره : تبعه . (٤) جهة ثور : وهو جبل قرب مكة .

العــبرة من الهجــرة :

(١) أراد الله تعالى ألا ينتشر الإسلام بمكة أوّلا ، حتى لا يُتَّخَذ ذلك ذريعة[١] إلى الطعن عليه بأن قريشًا طمحت إلى الملك ، فأوعزت إلى واحد منها أن يَدَّعى هذه الدعوى ؛ ليدركوا بذلك أمنيتهم ، بل أراد الله أن يكونوا قومًا لُدًّا ، لم يَعْرِفُوا فى إيذاء للنبى وأصحابه هوادة ولا حدًّا[٢] .

(٢) ظهر جليًا فى هذه الهجرة أن الدعوة الإسلامية كانت تساير الأحوال العادية للناس ، وتجرى على حسب الأحداث الطبيعيــة للبشر : التى ترتبط فيهــا الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، ويظهر فيها التفكير والاجتهاد ، ولم يكن اعتمادها على الآيات الكونية الخارقة للعادة ، والتى تفوق مقدور البشر ، ولا يتناولها إدراكهم ؛ فإن النتيجة الطبيعية لمقاومة الدعوة ، مع الغلو فى إيقاع أشد أنواع الأذى بالداعى — إنمــا هى هجر البلاد إلى أخرى تفتح صــدرها للدعوة وتكرم صاحبها ، وتمنعه ممــا تمنع منه أهلها .

(٣) تجلى فيها رباطةُ جأش النبى صلى الله عليه وسلم وثباتُ جَنَانه ، وحُسْن تدبيره وقت ترقب الشــبان إياه حول داره ، وقد دل على ذلك سَعَةُ حيلته ، وعظم فكرته ، فى انتــداب علىّ لينام مكانه ؛ ليلقى فى رُوع[٣] القوم ، أنه لا يزال فى فراش النوم ، ثم تَلَطُّفُهُ فى الخروج ، حتى لا يشعر به الراصدون ، مع خطر مهمهم ، وعظيم اهتمامهم ، وكذلك سلوكه طريقا غير مطروق كثيرًا ، واختباؤه فى الغار ثلاث ليال ، وهى المدة التى يغلب على الظن أنهم يطلبونه فيها ، ثم يتسرب اليأس إلى نفوسهم .

---

(١) وسـيلة . (٢) لينـا . (٣) ذهن أو عقــل .

(٤) كانت الهجرة مبدأ عهد جديد لظهور الإسلام وقوته، وانتشاره بسرعة عظيمة دهش لها التاريخ، بعد أن مضت عليه ثَلَاثَ عَشْرَةَ سنةً يعانى أقصى ضنك من المشركين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ممنوع من الجهر بالعبادة، والمسلمون يتجرعون غصص العذاب الشـديد، حتى اضْطُرَّ بعضُهم قبل ذلك إلى الهجرة إلى الحبشة، وسَبَقَ مُعْظَمُهُمُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار أخوة فاقت أخوة النسب، فبدلهم الله بوطنهم وطنا ، وبأهلهم أهلا، وبضعفهم قوة، وبذلهم عزا، وببغضهم محبة :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا(١) الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِـمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً(٢) مِّمَّـا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ(٣) عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(٤) . وَمَن يُوقَ(٥) شُحَّ نَفْسِهِ، فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * ﴾ . سورة الحشر (٩)

المظهـــر الســادس

الحـــرب

علمت ممـا سبق أن شعار الدعوة المحمدية الإقناعُ بالحكمة والموعظة الحسنة، والنِّقَاشُ باللين والرفق، مع الاعتصام بالصبر على الأذى، والتأسى بسابق النبيين، الذين قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسـلم كثيرًا من قِصَصِهِم ؛ لِيُثَبِّتَ بهـا فؤاده، ويربط على قلبه بالصبر، قال تعالى :

(١) سكنوا المدينة . (٢) حســدا . (٣) يفضلون ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم
(٤) فقــر وحاجة . (٥) ومن يحفظ من بخل نفسه .

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ، وقال تعالى :
﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وكان المسلمون فى مكة قبل الهجرة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج[1]، فيقول لهم : «اصبروا فإنى لم أومر بالقتال» .

وقد أفرط المشركون فى بغيهم، وجاوزوا الحد فى طغيانهم، إلى أن ائتمروا على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، واضطَرُّوه بذلك إلى الخروج من داره، ومغادرة أحب البلاد إليه، وألجئوا المسلمين إلى هجر وطنهم، والخروج من أموالهم، وفراق أهلهم وأولادهم، فكان المشركون بذلك جدَّ ظالمين، وبالعداء بادئين، وللتأديب فى أوّل فرصة مستحقين .

فلما استقرّ عليه الصلاة والسلام فى دار هجرته، واجتمع عليه أصحابه، وصارت المدينةُ دار الإسلام وحِصْنَ المسلمين — رخص الله لهم فى محاربة المشركين الذين آذوهم شديد الإيذاء، وبدءوهم بالعدوان، وأبعدوهم عن الأوطان، قال تعالى فى سورة الحج (٣٩ ، ٤٠) :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ .

وقد جاء الترخيص بالقتال فى إبّانه؛ لأن المسلمين كانوا بمكة بين المشركين قِلَّةً فى كثرة ، فلو أُمِرُوا بالقتال حينئذ لشق عليهم .

---

(١) مجروح الوجه أو الرأس .

وقد أمر الله تعالى نبيه بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة البقرة (١٩٠، ١٩١، ١٩٢) :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا. إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (١) وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَالْفِتْنَةُ (٢) أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ. كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا (٣) فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ .

وبذلك كان عليه الصلاة والسلام لا يغزو إلا قريشًا، ولكن لما انضم إليهم غيرهم من المشركين أُمِرَ بقتالهم جميعًا، من أى قبيلة، وفى أى موضع . قال تعالى فى سورة التوبة (٣٦) :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً (٤) كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ .

ثم كُلِّفَ قِتالَهُمْ ولو لم يبدءوا بقتال، محْوًا للوثنية، وإظهارًا لأمر الله، وإعلاءً لكلمته، قال تعالى فى سورة البقرة (١٩٣) :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ (٥) إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ *﴾ .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» وعلى هذا الأساس كان عليه الصلاة والسلام يَقبل ما ظهر من المنافقين، ويَدَعُ ما بطن، وإن كان لا يأمن جانبهم، ولا يركن إليهم فى عمل .

(١) وجدتموهم. (٢) الشرك. (٣) تركوا الكفر. (٤) جميعا. (٥) اعتداء.

وكان اليهود قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينوا عليه أحدًا، وإن دهمه[1] بالمدينة عدو ينصروه . وبذلك خلّى بينهم وبين دينهم، فلما نقضوا العهد بمساعدتهم المشركين أمرَ اللهُ بقتالهم : قال تعالى فى سورة الأنفال (٥٨) :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ[2] إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * ﴾ .

وبذلك وجب قتال أهل الكتاب حتى يسلموا، أو يقدموا الجزية أذلّاء، قال تعالى فى سورة التوبة (٢٩) :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ[3] أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ[4] وَهُمْ صَاغِرُونَ[5] * ﴾ .

فمن هذا يتبين أن الحرب فى الإسلام كانت أوّلًا[6] انتصارا من قريش الباغين، ثم امتدّت إلى من مالأهم[7] من المشركين، ثم عمت المشركين؛ إعلاء لكلمة الله، ولم تمسّ أهلَ الكتاب حتى نقضوا العهد، وعاونوا المشركين، وبعدُوا عن الدين الحق.

وقد حث الله تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن على الشجاعة فى جهاد الأعداء، ووعد عليه بجزيل العطاء، قال تعالى فى سورة النساء (٧٤) :

---

(١) فاجأه . (٢) اطرح عهدهم . (٣) اليهود والنصارى . (٤) منقادين .
(٥) أذلاء . (٦) تأديبا لهم . (٧) عاونهم .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ(١) الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * ﴾ .

كما حذر من الفرار من ميدان الحرب ، وأنذر من يرتكب ذلك بسوء المنقلب ، قال تعالى فى سورة الأنفال (١٥، ١٦) :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا(٢) فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ(٣) * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا(٤) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا(٥) إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ(٦) بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧) * ﴾ .

وقد أوجب اللهُ على المسلمين الخروجَ إلى الحرب إذا خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما إذا بقى بالمدينة وأرسل سَرِيَّة فيجب بقاء طائفة للتفقه فى الدين ، وليعلموا المجاهدين إذا رجعوا إليهم ما حَصَّلوا فى أيام غيبتهم من العلوم ، فالتفقه فى الدين جهاد أكبر ، إذ الجهاد بالعلم أعظم أثراً من الجهاد بالسيف ، والمقارعة بالحجج العلمية أساس الدعوة المحمدية . تقرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة التوبة (١٢٠، ١٢١، ١٢٢) :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا(٨) بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ(٩) وَلَا نَصَبٌ(١٠) وَلَا مَخْمَصَةٌ(١١) فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ

(١) يبيعون . (٢) جمعا عظيما . (٣) فلا تفروا منهم منهزمين . (٤) منعطفا . (٥) منظما إلى جماعة من المسلمين . (٦) رجع . (٧) المرجع . (٨) ولا يصونوا أنفسهم عما رضيه لنفسه من الشدائد . (٩) عطش . (١٠) تعب . (١١) جوع .

لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ . إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا(١) كَافَّةً . فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا(٢) فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * ﴾ .

المظهر السابع

عقد المعاهدات، ومراسلة الملوك، واستقبال الوفود

(ا) عقد المعاهدات :

من أطوار الدعوة المحمدية، والمظاهر التى ظهرت بها عَقْدُ المعاهدات: ذلك الأمر الذى لا بدّ له من عقل كبير، وحسن تدبير، و بصر بعواقب الأمور، وعلم واسع بمقتضيات الأحداث، وتقلبات الأحوال .

و إن المتأمل فى معاهدة الحُدَيْبِيَةِ، التى عقدت فى السنة السادسة من الهجرة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش — لا يدخله أدنى ريب فى أنه كان أَوْسَعَ القوم فكرًا، وأَبْعَدَهُمْ نظرًا، وأسدَّهم رأيًا، وأسماهم سياسة وكِيَاسة؛ إذ لم يعرف التاريخ معاهدة أثمرت أطيب الثمرات — على خلاف ما كان يبدو منها — مثلَ معاهدة الحُدَيْبِيَةِ؛ فقد كانت من أعظم الوسائل إلى إظهار دين الله، وتطبيقه الجزيرة العربية :

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد زيارة البيت الحرام، فخرج مع نحو أَلْفٍ وخَمسِمائَةٍ من المهاجرين والأنصار، فلما وصل إلى الحُدَيْبِيَةِ (موضع بقرب

(١) ليذهبوا إلى الغزو . (٢) ليتعلموا .

مكة) أبت قريش أن يدخل مكة على غير إرادتهـم ، وأبى صـلى الله عليه وسـلم إلا أن يزور على رغم كل مقاومة . فتفاوض الفريقان ، وانتهت المفاوضـة بعقد معاهدة على النحو الآتى :

(١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .

(٢) من جاء المســلمين من قريش يردونه إليهم ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يلزمون ردَّه .

(٣) يرجع النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير زيارة هـذا العام ، ثم يأتى العامَ المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تُخْلِيَهَا له قريشٌ ثلاثة أيام ، فيقيمُ بها هذه المدّة ، ليس مع أصحابه من السلاح غيْرُ القوسِ والسيف فى القراب .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيـه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

فاعترى المسلمين من هذه المعاهدة همٌّ عظيم ، ودخلهم كرب شـديد ؛ لأنهم رأوا فيهـا إجحافًا (١) بحقوقهم ، وغَضًّا (٢) من شأنهم ، وقالوا : كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلمًا ، ولا يردّون من جاءهم مرتدًّا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

«إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا» .

وكان حزن المسلمين لصدّهم عن الطواف بليغاً ، وثارت ثائرة عمر على المعاهدة ، واحتج عليها احتجاجًا شديدًا .

---

(١) نقصا فاحشا . (٢) وضعا من قدرهم .

ولكنَّ الأيام أثبتت بُعْـدَ نظره عليه الصلاة والسلام : وذلك أنه بعـد عقد المعاهدة اختلط المسلمون بقرابتهم وصحابتهم من أهل مكة، وأخذوا يقصون عليهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وحسن سيرته، وجميل طريقته، ويوضحون لهم مقاصِدَ الإسلام النبيلة، ومبادِئَهُ السامية، فخالطت بشاشَتُهُ قلوبَهُمْ، وقذف الله نوره فيها، فبادر كثير منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، وازداد الآخرون ميلا إليه، فلما كان يَوْمُ الفتح أسلموا كلهم، لِمَا استقر فى نفوسهم من الميل السابق. وإن معاهدة تثمر هذه الثمرات الباهرة، وتفيـد هذه الفوائد المتظاهرة — لأوضح برهان، على ما للنبي فى السياسة من عظم الشأن، وماله من نظر يخترق حجب الأيام، ويمتدّ على أفق الأعوام .

قال سيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — : ما كان فتحٌ فى الإسلام أَعْظَمَ من فتح الحُدَيْبِيَةِ، ولكن الناس قَصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجَلون، والله لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

يُصَدِّقُ ما ذهب إليه سيدنا أبو بكر نزولُ سورة الفتح على النبي صلى الله عليـه وسلم فى رجوعه من الحُدَيْبِيَةِ، وفى أوّلها يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً ﴾ .

ويكفى فى الدلالة على رفعة شأنها، وبُعْد أثرها أن الله تعالى سماها فتحا مبينا، وأعقبها نصراً عزيزاً .

(ب) مراســلة المــلوك :

كان لمعاهدة الحُدَيْبِيَةِ فائدةٌ أخرى لا تقل أهمية عما تقــدّم : ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمـا أمن جانب قريش شرع يوسع أفق الدعوة ، ويتجاوز بها جزيرة العرب فكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام، فكان يكتب إلى كل ملك بمـا يناسبه ، و إلى كل أمير بما يليق به، وكُتبُهُ إلى أهـل الكتاب تغاير كُتُبَه إلى المشركين وكتبُهُ إلى العرب تباين لهجتها لهجةَ كتبه الى غيرهم ، وقد مزجها جميعها بطرف من التحذير والتبشير والرغبة والرهبة، مما ينهض حجة قوية على حُنْكَتِه السياسية، وجدارته بعموم رسالته .

وقد كتب صلى الله عليه وسلم إلى قيصرَ، وكسرَى ، والنجاشيِّ ، ومَلِكِ البحرين، وملكي عمان، وملك اليمامة، وأمراء بصرى ودمشق ومصر .

و إنا لذاكرون لك بعض هذه الكتب لتقوم برهانًا على ما قدّمنا :

(ا) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإســلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأَريسيين (١) .

و﴿ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَـالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَــوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُــدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَــيْئًا وَلَا يَتَّخِــذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * ﴾ .

(١) الأتباع من عبيد وخدم وفلاحين وغيرهم .

(ب) كتابه صلى الله عليه وسلم الى ملـكى عمان:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ابْنَى الْجُلَنْدَى .

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما؛ فإنى رســول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيا ويَحق القول على الكافرين؛ و إنكما إن أقررتمـا بالإسلام وَلّيتُكما، و إن أَبَيْتُمَا فإن ملككما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوّتى على ملككما .

(حـ) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ملك البحـــرين :

بسم الله الرحمن الرحيم . سلم أنت، فإنى أحمـد اليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإن من صَلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة الرسول. من أحب ذلك من المجوس فهو آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية.

(ب) اســتقبال الوفــود :

فى السنوات الثامنة والتاسعة والعاشرة تتابعت وفود العرب من أنحاء الجزيرة العربيــة على النبى صلى الله عليه وسلم، فأحسن لقاءهم، وأجزل عطاءهم، وَوَسِعَ صَــبْرُهُ جفاءَهم، وما يزال بهـم يحاورهم، و بالدين الحق يبصرهم، حتى يشرح الله للإسلام صدورهم؛ فيا لها من حجـة قاطعة ، وسياسة بارعة، وخبرة بمـا يَسْتَرِقُّ القلوبَ واسعةٍ، وبصيرة بمـا يجذب النفوس ساطعةٍ . وهاك ذِكْرَ بعض الوفود لتحقق صدق ما نقول :

(ا) وفـــود تمـــيم :

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من يأخذ الصدقات من بني كعب ، فلم يمكنه من ذلك بنو تميم المجاورون لبني كعب ، فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتِيبَةً حاربتهم ، وأَسَرَتْ منها أحد عشر رجلاً ، و إحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبيًّا . فجاء في أثرهم وفد من بني تميم ، ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم بصوت عال جافّ : يا محمدُ اخرج إلينا نفاخرك ؛ فإنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ ، وذَمَّنَا شَيْنٌ . وقد تألم النبي صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، وفيهم نزل قول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * ﴾ . سورة الحجرات (٤ و ٥)

خرج إليهم عليه الصلاة والسلام ، وكان الوقت ظهرا ، فذهب إلى الصلاة فتعلَّقُوا بِهِ يقولون : نحن ناس من تميم جئنا بِشَاعِرِنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم عليـه الصلاة والسلام : « ما بالشعر بُعِثْنَا ولا بالفَخَارِ أُمِرْنَا » ثم صلى الظهر ، واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون .

وقد تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم عن خروجهم عن حد الأدب في مناداته من وراء الحجرات ، وعن غرورهم وتفاخرهم بمجدهم ومجد آبائهم أمام رجل عظيم هم في أشد الحاجة إلى استرضائه بالتواضع والأدب في حضرته ؛ لأن رجالهم ونساءهم وصبيانهم أسرى عنده . وما زال بهـم عليه الصلاة والسلام في لين ورفق حتى أسلموا ، ورَدَّ عليهم أسراهم ، وأجزل عطاياهم ، وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ، ويتفقهون في الدين .

(ب) وفود عَدِىٍّ بن حاتم رضى الله عنه :

قال عدى بن حاتم : كنت امرأ شريفا فى قومى، فلما سمعت برسول الله كرهته : ما رجلٌ من العرب كان أشدَّ كراهيةً له حين سَمِعَ به منى، ولما علمت أن جيش محمد قد وَطِئَ البلادَ احتملت أهلى وولدى ، والتحقت بأهل دينى من النصارى بالشام، وخلفت بنتًا لحاتم، فَسُبِيَتْ(1) فيمن سُبِيَ، فلما قَدِمَتِ السبايا على رسول الله، وبلغه هربى الى الشام، مَنّ عليها وكساها وحملها وأعطاها نفقة، وأَقْبَلَتْ إلى الشام، ثم أقامت عندى، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ ماذا تَرَيْنَ فى أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعًا ؛ فإن كان نبياً فللسابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت، فقلت : والله إنّ هذا لَلرَّأْىُ .

ولما ذهبت إليه قال : مَن الرجل؟ فقلت : عدى بن حاتم، فانطلق بى إلى بيته، وإنه لقائدى إليه إذ لَقِيَتْهُ امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها، فقلت : ما هذا بمَلِك، ولما دخل بيته تناول وسادة بيده من أَدَمٍ(2) حَشْوُها لِيف، وقال : اجلس على هذه ، فقلت : بل أنت فاجلس عليها، قال : بل أنت، فجلست عليها، وجلس الرسول على الأرض، فقلت : والله ما هذا بأمر مَلِك .

ثم قال لى : يا عدى بن حاتم ألست من القوم الذين لهم دين ؟ فقلت : بلى، فقال : ألم تأخذ ربع الغنيمة ؟ (كما هو شأن الأشراف فى الجاهلية) قلت : بلى، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك ، قلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبى مرسل ، يعلم ما يُجْهَلُ .

(1) أسرت . (2) جلد .

ثم قال : لعلك ياعدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله لَيُوشِكَنَّ[١] المــال أن يفيض فيهم حتى لا يوجَدَ من يأخُذُه، ولعلك إنما يمنعك من ذلك ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من ذلك أنك ترى أن المُلْكَ والسلطان فى غيرهم ، وأيم[٢] الله ليوشكن أن تســمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَتْ عليهم .

قال عدى : وقــد رأيت المرأة تخرج من القادســية على بعيرها تحج البيت .

وقد أسلم عدى رضى الله عنه وحسن إسلامه .

(ح) وفــد كِنْــدَة :

وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون من كندة (قبيلة باليمن) فلما أرادوا الدخول عليه سرحوا شعورهم وتكحلوا ولبسوا جُبَبَ[٣] حِبَرَةٍ[٤] قد سجفوها بالحرير. ولمــا دخلوا عليه قالوا : أبيت اللعن[٥] ، فقال لهم : لست ملكًا ، أنا محمد بن عبــد الله . قالوا لا نسميك باسمك ، قال : أنا أبو القاسم ، قالوا : يا أبا القــاسم ، إنا خبأنا لك خبئًا فما هو ؟ (وكانوا خبئوا له عين جرادة فى ظرف سمن) فقال لهم: سبحان الله، إنما يفعل ذلك الكاهن ، و إن الكاهن والكهانة والتكهن فى النار ، فقالوا كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ كفًا من حصباء ، فقال : هذا يشهد أنى رسول الله،

---

(١) ليقربن . (٢) اسم استعمل فى القسم ، من اليمن : وهو البركة . (٣) ثياب يمانية من قطن وكتان مخطط . (٤) ســتروها . (٥) أبيت أن تأتى ماتلعن عليــه وهى تحية الملوك فى الجاهلية .

فسبّح الحصى فى يده ، فقالوا نشهد أنك رسول الله ، قال : إن الله بعثنى بالحق ، وأنزل علىّ كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه ، فتلا الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (1) * فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (2) * فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ * رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ (3) * ﴾ .

ثم سكت وسكن ودموعه تجرى على لحيته، فقالوا : إنا نراك تبكى، أَمِن مخافة مَن أرسلك ؟ قال : خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف ، إنْ زُغْتُ (4) عنه هلكت ، ثم تلا :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * ﴾ .

سورة الاسراء (٨٦ و ٨٧)

ثم قال لهم عليه الصلاة والسلام : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى، قال : ما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ فعند ذلك شَقُّوهُ وأَلْقَوْهُ .

خاتِمةُ مَظاهِر الدَّعْوَةِ

هذه أغلب مظاهر الدعوة الإسلامية ، وأهم الأطوار التى تدرّجت فيها وهى أطوار للعقل البشرى فيها مجال واسع، وللتفكير وحسن التدبير فى نجاحها فضل عظيم : فهى من الوجهة العقلية انتصار للعقل لم يعهده من قبل ، ومن الوجهة السياسية

(١) الملائكة تصف نفوسها فى العبادة أو أجنحتها فى الهواء تنتظر ما تؤمر به . (٢) الملائكة تزجر السحاب أى تسوقه . (٣) سورة الصافات (١ — ٥) . (٤) ملت .

خير مثال يحتذيه عباقرة السياسة ، ومن الناحية الحربية خطط قويمة يدهش لهـا نوابغ القـوّاد .

ويكفى هذه الطريقةَ شرفًا عظيمًا، أنها أقامت دينًا قويمًا، وأضاءت نُورًا قويًا أخرج الناس من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور العـلم والتوحيد ، وكونت رجالًا كانوا فى جبين الدهر غرة ، وفى تاج التاريخ أنفس درّة ، رجالًا ذوى عقل راجح، وإيمان راسخ، وهمة عليّة، ونفوس أبيّة، وإرادة حديدية، لم تزعزعها الحوادث ، ولم تنل منها تقلبات الأيام. رفعوا لواء الإسلام وأَعْلَوْا مناره، وثلُّوا عروش الجبابرة، ونشروا العدالة .

وكما كانوا فى السياســة والحرب مُثُلًا كاملة ، كانوا قدوة صالحة فى الصفات النبيلة ، والأفعال الجليلة .

٦ ــ مثـــل من أخلاق النبي الكـريمة

مع الاستشهاد لهـا بحوادث من سيرته

كان صلى الله عليه وسلم من الأخلاق المجيدة فى الذروة ، كما كانت أفعاله المنبعثة عنها خَيرَ قدوة . ولا غرو فحسن الأفعال ، مظهر لجمال الخلال ، وجدير بمن بُعِثَ ليتم بناء المكارم أن يكون لها شاملًا ، وفى جميعها مثلًا كاملًا ؛ ولذلك استحق أن يصفه الله فى القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * ﴾ . سورة القلم (٤)

وإنا لذاكرون لك طرفا من عظيم خلاله ، لتنسج على منواله ، وتحـذو حذو فعاله ، فتسعد فى الدنيا والآخرة :

(ا) شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم من الشجاعة بالمكان الأرفع ، والمنزلة التى لا تدفع : لاتفزعه الحوادث ، ولا تزعزعه الأهوال ، وقد حضر أصعب مواقف القتال، وفرّ عنه الكماة والأبطال، وهو ثابت ثبوت الجبال .

(١) قال ابن عمر — رضى الله عنهما — : « ما رأيت أشجع ، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) وقال علىّ — كرم الله وجهه — : « كنا إذا اشتدّ البأس، واحمرت الحَدَقُ اتقينا برسول الله ؛ فما يكونُ أَحَدٌ أقربَ إلى العدوّ منه، ولقد رَأَيْتُنِي يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأسا » .

(٣) وقال البَرَاءُ : « كنا إذا احمرّ البأس نتقى به ، وإن الشجاع منا لَلَّذى يحاذِى به » .

(٤) وقال أنس بن مالك : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس؛ ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة؛ فانطلق ناس قِبَل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعًا، وقد سبقهم الى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة عُرْيٍ فى عنقه السيف وهو يقول : « لم تُرَاعُو لم تراعوا » أى لم يحصل لكم ما يضركم .

ففى ذلك بيان لشجاعته صلى الله عليه وسلم : من شدّة سرعته فى الخروج إلى العدو قبل الناس جميعًا، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس .

(٥) وقال رجل من قيس للبراء : « أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقـال البراء : « ولكنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنا لمـا حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا (١) على الغنائم ، فاستقبلونا بالسّهام ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء — وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها — وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

وهذا غاية ما يكون شجاعة وثباتاً ؛ لأنه فى مثل هـذا اليوم فى حومة الوغى (٢) . وقد انكشف عنه جيشه ، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجرى ، ولا تصلح لكرّ (٣) ولا فـرّ ولا هرب ، ومع ذلك يركضها (٤) إلى وجوههم ، وينوّه باسمـه ؛ ليعرفه من لا يعـرفه .

(٦) وكان بمكة رجل شديد القوّة يقال له : رُكَانَةُ بن عبد يزيد يحسن الصراع ، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيَصْرَعهم ، فبينا هو ذات يوم فى شِعب (٥) من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ما معناه : ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ فقال له رُكَانَةُ : يامحمد ، هل من شاهد يدل على صدقك ؟ قال : « أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم يامحمد ، فقال له : تهيأ للمصارعة ، قال : تهيأت ، فدنا منـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأخذه ثم صرعه ، فتعجب ركانة من ذلك ، ثم سأله الإقالةَ والعودةَ ، ففعل ذلك به ثانيـًا

(١) أقبلنـا . (٢) شدّة القتال . (٣) يجول الفارس فى ميدان الحرب : يذهب فيه عن العدوّ ويجيء إليه ، فذهابه يسمى : فرا ، ومجيئه يسمى : كرا . (٤) يستحثها لتجرى .

(٥) الشعب : الطريق فى الجبل أو ما انفرج بين الجبلين .

وثالثًا، فوقف ركانة متعجبًا، وقال : إن شأنك لعجيب . وقد آمن رُكَانَةُ ورضى الله عنه .

(٧) وقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا الأسود الجمحي وكان شديدًا : بلغ من شدّته أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذب أطرافه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فَيَتَفَرَّى (١) الجلد ولم يتزحزح عنه ، فدعا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى المصارعة، وقال : إن صرعتنى آمنت بك، فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يؤمن .

(ب) صبره صلى الله عليه وسلم واحتماله الأذى

وثباته على مبدئه مع ثقته بالله تعالى

لما صَدَعَ (٢) الرسولُ صلى الله عليه وسلم بالدعوة كانت قريش يسخرون منه، وإذا مر بهم يستهزئون : هذا ابن أبى كبشة يُكَلَّمُ من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء، والنبي صلى الله عليه وسلم ماض فى دعوته، معرض عن سخريتهم، غير مبال استهزاءهم، ناصح لهم بترك عبادة الأوثان، وتوحيد الملك الديان .

وكان عمه أبو طالب يمنحه حمايته، ويوليه رعايته، وهو من بنى هاشم فى الشرف الصميم ، والمجد القديم ، فأَهْرِع (٣) المشركون إليه يشكون محمدا ، ويطلبون إليه أن يكفه، أو يخلى بينهم وبينه، فردّهم ردًّا جميلًا .

ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم قائم بدعوته لا يعبأ باحتجاجهم ولا يَحْفِل بتذمرهم (٤)، ولا يفتأ يعيب آلهتهم ويُزَيِّف عقائدهم، فى لين ورفق، وحجة وموعظة

(١) ينشق . (٢) جهر . (٣) أسرعوا فى رعدة . (٤) بتنكرهم له ووعيدهم إياه .

فعظم عليهم الأمر، فحقدوا عليه وتواصوا بالضغينة، وعاودوا الشكوى إلى أبى طالب، ولكن فى شــدّة وتهديد، فإما أن يمنعه، وإما أن ينازلوه[1] معه، فعز على أبى طالب فراقُ قومه، وأبت نفسه أن يخذل ابْنَ أخيه، فطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يُبْقِىَ على نفسه ولا يُحَمِّلَهُ من عداوة قريش مالا يُطيقُ، فقال النبى: «والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هــذا الأمر ما فعلت، حتى يُظْهِرَهُ الله أو أَهْلِكَ دونه» ثم ولى متأثرًا، فهاج ذلك عاطفةَ عمه، فنـاداه، فأقبل عليه، فقال: «اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك».

ورأى المشركون أن النبى صــلى الله عليــه وسلم لا يلوى على شىء فى دعوته، ولا يعوقه عائق فى سبيل إقامة دينه، فأوغلوا فى إيذائه، وافتنوا فى إيلامه، رجاء نكوصه[2] و إحجامه.

جمـاعة المستهزءين :

وكان أشنعهم إيذاء لرسول الله صلى الله عليــه وسلم جماعة وُصِفوا لإغراقهم فى الإيذاء بالمستهزءين :

أولهم وأفظعهم أبو جهل عمْرُو بْنُ هشامِ بْنِ المغيرة المخزومىُّ القرشىُّ: قال يوماً: يامعشر قريش، إن محمدًا قد أتى ما ترون : من عيب دينكم، وشتم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، وسب آبائكم، إنى أعاهــد الله لأجلسنّ له غدًا بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته رضخت[3] به رأسه، فأَسْلِمونِى عند ذلك أو امنعونى، فَلْيَصْنَعْ بى

(١) يحاربوه. (٢) رجوعه عن دعوته.

(٣) رضحت رأسه (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) : كسرته.

بعد ذلك بنو عبـد مناف ما بدا لهم . فلمـا أصبح أخذ حجرًا ، وجلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه الصلاة والسلام كعادته إلى صلاته، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما يفعل أبو جهل، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما، منتقعا لونه من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ماقلت لكم، فلما دنَوتُ منـه عرض لى فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله قط، هَمَّ بى أن يأكلنى، فلما ذكر ذلك لرسول الله، قال : ذاك جبريل، ولو دنا لأخذه .

ومن أذية أبى جهل للرسول ما رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود، قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى، فقال أبو جهل: ألا رَجُلٌ يقوم إلى فَرْثِ[1] جَزُورِ[2] بنى فلان فَيُلْقِيَهُ على محمد وهو ساجد ، فقام عُقْبَةُ بْنُ أبى مُعَيْط بْنِ أبى عَمْرو ابن أميَّـةَ بْنِ عبدِ شمس ، وجاء بذلك الفَرثِ فألقاه على النبى صلى الله عليـه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين على إلقائه عنه؛ لضعفهم عن مقاومة عدوّهم ، ولم يزل عليـه الصلاة والسلام ساجدًا حتى جاءت فاطمة فأخذت القذر ورمته ، فلما قام دعا على من فعل هذه الفعلة الشنعاء، فقال: اللهم عليك الملأُ من قريش، (وسمى أقوامًا)، فقتل معظمهم يوم بدر .

ومن جماعة المستهزءين أبو لَهَبِ بْنُ عبدِ المطلبِ عَمُّ رسولِ الله : كان أقسى عليه من الأباعد ، وكان جارًا للنبى صلى الله عليـه وسلم ، فكان يرمى القـذر على بابه ،

---

(١) الزبل . (٢) الجزور من الإبل خاصة يقع على المذكر والمؤنث، وقيل : الجزور : الناقة التى تنحر .

وتشاطره عَمَّتُهُ الشنيعَ زوجهُ أمُّ جميلٍ بنتُ حربِ بنِ أميّةَ، فكانت تسب النبي كثيراً، وتختلق عليه الأكاذيب فى نوادى النساء، وبخاصة بعد أن نزلت فيها وفى زوجها السورة المعروفة . وأبو لهب هذا هو الذى جَبَهَ[1] النبيَّ صلى الله عليه وسلم يوم الصفا بقوله : تبًّا لك ألهذا جمعتنا . وكان يتبع النبي وهو يطوف على المنازل يدعو الناس إلى التوحيد . فيحرضهم على عدم اتباعه .

ومن المستهزءين عُقْبَةُ بْنُ أبى مُعَيْط : كان الجارَ الثانىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: والله لا آكلُ طعامَك حتى تؤمنَ بالله، فتشهّدَ، فبلغ ذلك أُبَىَّ بْنَ خَلَفٍ الجُمَحِىَّ وكان صديقًا له، فقال : ما شَىْءٌ بلغنى عنك؟ قال : لا شىء : دخل منزلى رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يَطْعَم، فشهدت له، قال أُبَىّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدًا فلم تَطَأْ عنقه، وتَبْزُقْ فى وجهه، وتَلْطِمْ عينه، فلما رأى عُقْبَةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ساجدا فعل به ذلك، فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان (٢٧ — ٢٩) .

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ[2] لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي . وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا *﴾ .

ومن أفظع أفعال هــذا الشقى برسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه البخارى فى صحيحه، قال: بينما النبي يصلى فى حِجْر الكعبة إذ أقبل عُقبةُ بْنُ أبى مُعَيْط، فوضع

(١) لقيه بما يكره، ورده .   (٢) يا هــلاكى .

ثو به فى عنق رسول الله صلى الله عليه وســلم فخنقه خنقا شـديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بِمَنْكِبِه، ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ * ﴾ .

سورة غافر (٢٨)

ومن المستهزءين العاصُ بْنُ وائلٍ السَّهْمِىُّ القرشى والد عمرو بن العاص، ومنهم الأسودُ بْنُ عبدِ يَغُوثَ الزهرىُّ القرشىُّ من بنى زهره أخوال رسول الله، والأسود ابن عبد المطلب الأسدىُّ ابنُ عم السيدةِ خديجةَ، والوليدُ بن المغيرةِ عَمُّ أبى جهل، والنضر بن الحـارث .

وكل من هؤلاء كان يبذل قصارى جهده فى إيقاع أشـد أنواع الإيذاء برســول الله صلى الله عليه وسـلم، الذى كان يبدى من الاحتمال والثبات والصبر، المثـلَ الكاملَ مدى الدهر، والقـدوةَ المثلى لمن تتابعت عليــه الآلام ، وتواصى بإيذائه اللئـام .

وقد انتقم الله منهم جميعًا تحقيقًا لصادق وعده ووعيده فى قوله :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . فسوف يَعْلَمُونَ * ﴾ .

سورة الحجر (٩٥ و٩٦)

ما لاقاه المسلمون من الإيذاء :

وكما أوذى الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفســه أوذى من أصحابه ، لا سيما من ليس له قرابة تمنعه وتصدّ عنه، ولكن هـذا الأذى كان عذبا عنـدهم ، مادام فى سبيل رضا الله ورضا رسوله؛ ولذلك لم يزحزحهم أَشَدُّ ألوانه إيلاما قيد شعرة

عن الإيمان، بل ثبتهم الله بالقول الثـابت ، فمزجوا حلاوة الإيمان بمرارة العذاب ، وكان لهم من هذا المزيج قُوَّة رفعتهم إلى مرتبة الملوك بعــد أن كانوا أذلاء مستضعفين .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * ﴾ . سورة القصص (٥)

وممن أوذوا فى الله بِلالُ بْنُ رَباح : كان مملوكًا لأمية بن خلف، فكان يخرج به فى وقت الظهيرة إلى الرمضاء (رمل شديد الحرارة ينضج اللحم من شدّته)، و يطرحه عليها، و يلقى على صدره الصخرة العظيمة؛ ليكفر بمحمد ويؤمن بالأصنام ، ولكنه كان لا يفتر عن قول : أحد، أحد. وكان يجعل فى عنقه حبلاً ويسلمه إلى الصبيان يلعبون به ويسخرون منــه ، فكان ذلك لا يشغله عن كلمة التوحيد يردّدها لسانه وجنانه، ودأب أمية بن خلف على إيلامه؛ كى يزحزحه عن إسلامه، إلى أن اشتراه أبو بكر — رضى الله عنه — وأعتقه فأنقذه من هذا العذاب الأليم .

وممن أعتقهم أبو بكر ممن كانوا يُعَذَّبون امرأةٌ تُسمى زِنِّيرة : عذبت فى الله حتى عَمِيَتْ، فلم يزدها ذلك إلا إيماناً، وقال المشركون : ما أصاب بَصَرَها إلا الأصنامُ، فقالت : كلا والله ما هو كذلك، فردّ الله عليها بصرها .

وممن عُذِّب فى سـبيل الله عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعــذبون بالنار، فمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «صبرًا آل ياسر، فموعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت» .

أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العـذاب رضى عنهما ، وأما هو فاشتدت عليه وطأة العذاب ؛ فإن أبا جهل — لعنه الله — كان يلبسه دروع الحـديد فى اليوم الصائف ، ويَصْهَرُه فى الشمس ، فقال بلسانه فقط كَلِمَةَ الكفْر ، فقال المسلمون : كفر عمّار ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«عمَّارٌ مَلِىءٌ إِيمَـانًا مِنْ فَرْقِهِ إِلَى قَدَمِهِ» .

وقال تعالى فى شأنه وشأن أمثاله فى سورة النحل (١٠٦) :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ﴾ .

ومن الذين أوذوا فى دين الله خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ : سُـبِىَ فى الجاهلية فاشـترته أم أنمار وكان حدّادًا ، وكان النبى صلى الله عليه وسـلم يألفه قبل النبوّة ، فلما شرفه الله بها أسـلم خَبَّابٌ ، فكانت مولاته تعذبه بالنار ، فتأتى بالحديدة المحماة ، فتجعلها على ظهره ليرتد ، فلا يزداد إلا إيماناً .

جاء خَبَّابٌ مَرَّةً إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : يا رسول الله ، ألا تدعـو الله لنـا ! فقعد عليه الصـلاة والسلام مُحْمَـرًّا وَجْهُهُ ، فقال : إنه كان مَن قبلكم يُمْشَطُ أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لَحْم وعَصَب ، ويوضع المنشار على فَرْق رأس أحدهم فيُشَقُّ — مايصرفه ذلك عن دينه ، ولَيُظْهِرَنَّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صـنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو وأصحابه على هـذه الحالة الشديدة : من الاضطهاد والإيذاء ، وإن هـذا لأعظم درس فى الثبات على المبدأ الحق ، والصبر على المكاره واحتمال الآلام، مع ثقة عظيمة بالله تعالى .

ولما اشتدّ الإيذاء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وخاصة الضعفاءُ — أمرهم بالهجرة إلى الحبشة . فهاجر إليها نَحْوُ عشرةِ رِجال وخمسِ نِسْوة .

عدول المشركين عن خُطَّة الإيذاء إلى عرض مطالب :

لما تبين لقريش أن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يعُدْ عليهم بعائدة؛ بل كلما أوسعوا المسلمين أذى رسخ إيمانهم، واستقر يقينهم، وسما صبرهم؛ وتجلى ثباتهم — لما تبين لهم ذلك اجتمعوا يتشاورون؛ فقال لهم عُتبةُ بْنُ رَبيعةَ، وكان سيدًا مطاعا فى قومه : ألا أقُومُ لمحمد فأُكَلِّمَهُ، وأعْرِضَ عليه أموراً عله يقبل بعضها، فنُعْطِيَهُ إياها ويَكُفَّ عنا ؟ فقالوا : يا أبا الوليد ، لك ذلك ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى المسجد، وقال : يابن أخى، إنك منا حيث علمت : من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فَرَّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهت أحلامهم، وعِبْتَ آلهتهم ودينهم، وكَفَّرْتَ من مضى من آبائهم، فاسمع منى أَعْرِض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبلُ منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«قل يا أبا الوليد أَسْمع» .

فقال : يابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هـذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفًا سَوَّدْناك علينا ، حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد مُلْكًا مَلَّكْناك علينا ، وإن كان هـذا الذى

يأتيك رَئِيًّا (١) من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى . فقال عليه الصلاة والسلام : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم، قال : فاسمع منى، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت (١ — ١٤) :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ (٢) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ (٣) وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ . وَوَيْلٌ (٤) لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٥) * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا (٦) . ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ (٧) إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا . وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ

(١) جنى يريه كهانة وطبا و يلقى على لسانه شعرا . (٢) أغطية . (٣) ثقل .
(٤) عذاب وهلاك . (٥) غير مقطوع . (٦) شركاء جمع ند وهو المثل المخالف .
(٧) قصد : توجهت إرادته .

الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * ﴾ .

فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى هنا أمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك .

فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر. يامعشر قريش، أطيعونى فاجعلوها لى، خَلوا بين الرجل وبين ماهو فيه ، فَاعْتَزِلُوه، والله لَيَكُونَنَّ لكلامه الذى سمعت نبأٌ، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا : لقد سحرك محمد، فقال : هذا رأيى .

ثم عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركوه فى عبادته، فأنزل الله فى ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ * ﴾.

فطلبوا منه أن ينزع من القرآن ذَمَّ الأوثان والتهديدَ الشديدَ، ويأتى بقرآن غيرِ هذا أو يُبدِّلَهُ، فأنزل الله تعالى فى سورة يونس (١٥) :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * ﴾ .

ولما رأى المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم ثابت على مبدئه، وأنَّ مطالبهم لم تحوّله عن دعوته — لجئوا إلى تعجيزه بالمعجزات، وقد تقدّم لك ذلك .

المقاطعـــة :

رأت قــريش أن الإيذاء لم يثمـر ، وأن المطالب التي اقترحوها ذهبت هباء منثورا، وأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم يزداد ظهورًا، والإسلام يصادف ترحيبًا وانتشارًا ، فهموا بقتله صلى الله عليه وسلم ، وأجمعوا أمرهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وإخراجِهِمْ من مكة، والتضــييق عليهم؛ فلا يَبِيعونَهُمْ ولا يبتاعون منهـم، ولا يقبلون صلحًا حتى يُسْـلِمُوا محمدًا للقتل ، وتعاهَد المشركون على ذلك، وكتبوا به صحيفة علقوها داخل الكعبة ، فدخل عليه الصلاة والسلام مع بني هاشم وبني المطلب شِعْب عمه أبي طالب، فمنعت قريش عنهم التجار ، وحَرَّمُوا التعامل معهم، والاختلاط بهم، والاقتراب منهم . وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسـلم جميع المسلمين بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها معظمهم،وعدّتهم ثلاثةٌ وثمانون رجلًا وثمـانِيَ عَشْرَةَ امرأة .

وقد لاقى النبي ومن معــه في الشعب عناء شــديدًا ، وجهدًا جهيدًا ؛ فكان لا يصل إليهــم شيء إلا سرًا ؛ حتى أكلوا أوراق الشجر من شــدّة الجوع ، ومكثوا على ذلك نحو ثلاث ســنوات ، إلى أن ثارت عاطفــة جماعة من أشراف قريش ، فطالبوا بنقض الصحيفة رحمــة بأقاربهــم ، وعملوا لذلك ، وتم لهــم ما أرادوا ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هــذه الشدّة التي طال أمدها ، ولكنها لم توهن من صبره ، ولم تضعف من ثباته ، ولم تنل من ثقته بالله تعالى .

(ج) عطفه وشفقته صلى الله عليه وسلم

كان صـلى الله عليه وسـلم شديد الرغبة فى إصلاح أمته ، عظيم الرأفة بهـا ، والحَدَب(١) عليها ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ(٢) عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ(٣) حَرِيصٌ(٤) عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * ﴾ . سورة التوبة (١٢٨)

(١) وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النـبى — صلى الله عليـه وسلم — قال :

« لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّى اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لِأُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِىَ نَائِلَةٌ — إِنْ شَاءَ اللهُ — مَنْ مَاتَ مِن أُمَّتِى لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا » .

فمن عطفه صـلى الله عليه وسـلم على أمته ، وكمال شـفقته ورأفته ، واعتنائه بشأنهم — ادَّخر دعوته إلى يوم القيامة؛ لتكون شفاعة لهم فى أهم الأوقات .

(٢) وعن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — أن النبى صـلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى ابراهيم :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى ، وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) * ﴾ .

---

(١) العطف . (٢) صعب وشديد . (٣) عنتكم : مشقتكم ولقاؤكم المكروه .
(٤) شـديد الرغبـة فى إيمانكم ، وصـلاح حالكم . (٥) سـورة إبراهيم (٣٦) .

وقوله تعالى فى عيسى عليه السلام :

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ﴾ (١) .

فرفع يديه وقال : اللهم أمتى ! وبكى، فقال الله عز وجل : يا جبريل ، اذهب إلى محمد (وربك أعلم) ، فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال (وهو أعلم) ، فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

فتأمل هذا العطف السامى الذى أبكاه ، وهذا الفضل العظيم الذى منحه الله إياه .

(٣) وروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له : أأحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه وزاده شيئا، ثم قال : أأحسنت إليك ؟ فقال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنك قلت ما قلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء، فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدىّ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك، قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشى جاء فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضى، أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا . فقال عليه الصلاة والسلام: «مثلى ومثل هذا الرجل مثل رجل له ناقة شَرَدَت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها : خلُّوا بينى وبين ناقتى

(١) سورة المائدة (١١٨) .

فإنى أرْفَقُ بها منكم وأعلمُ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قُمام(١) الأرض فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رحلها، واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

(٤) وكان عليه الصلاة والسلام يسمع بكاء الصبى فيتجوزُ(٢) فى صلاته، ودخل الحسن وهو يصلى ، فركب ظهره وهو ساجد ، فأبطأ صلى الله عليه وسلم فى سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقــد أطلت سجودَك ، قال : «إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أُعْجِلَهُ» .

(٥) وعن أنس بن مالك قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان إبراهيم مُسْتَرْضَعًا له فى عوالى المدينة ، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخَّن ــ وكان ظئره(٣) قَيْنًا ــ فيأخذه فَيُقَبِّلُهُ ثم يرجع .

(٦) وعن أبى هريرة أن الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أبصر النبى صلى الله عليــه وسلم يقبل الحسن، فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ .

(٧) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وغلام أسود يقال له : أَنْجَشَةَ يحدو(٤) ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقا(٥) بالقوارير » يأمره بالرفق فى السير بالنساء اللاتى يشبهن القوارير الزجاجية فى ضعفها وسرعة انكسارها، وذلك ان الإبل إذا سمعت الحُداء أسرعت فى المشى واستلذته،

(١) جمع قمامة : وهى الكناسة . (٢) يخفف . (٣) الظئر : المرضع ويسمى زوجها أيضا ظئرا وهو المراد هنا . (٤) يغنى للابل حثا لها على السير . (٥) سق بهن على مهل .

فأزعجت الراكب واتعبته، فنهاه عن ذلك؛ لأن النساء تؤذيهن شدة الحركة ويخاف سقوطهن، وهذه شفقة عظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء، وعطف سام عليهن .

(٨) وعن ابن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حُلة وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه سابّ رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعيره بأمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم(١)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه .

(٩) ومر النبي صلى الله عليه وسلم على بعير قد لَحِق ظهره ببطنه ، فقال : اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة؛ فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة .

(١٠) ودخل بستانا لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذِفْرَاه(٢) فسكت، فقال: من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال : لى يارسول الله . قال : «أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؛ فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتُدئبه(٣)» .

(١١) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل يمشى بطريق اشتدّ عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب

(١) خدمكم . (٢) ذفراه (بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء) الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن . (٣) تتعبه .

يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقــد بلغ هذا الكلبَ من العطش[1] مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له[2]، فغفر له . قالوا يارسول الله، وإن لنا فى هذه البهائم لأجرًا ؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » .

(١٢) وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصغى[3] إلى الهرة الإناء حتى تشرب، ثم يتوضأ بفضلها .

فانظر إلى هــذه الأحاديث التى تسـيل عطفًا، وتمتلئ رفقًا ولطفا، وتفيض شفقة وحنانًا على الأمة جمعاء، والصبيان والنساء، والخدم والبهائم العجم. ولا غرو فينبوعها سيد المرسلين، الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

(د) صفحه وحلمه صلى الله علية وسلم

مُنِح صلى الله عليــه وسلم أوفر حظ من الحلم، وأعظم قسط من الصفح عن المسىء، وأسمى نصيب من العفو عنــد المقدرة : فكان يصل من قطعه، ويعطى من منعه، ويعفو عمن ظلمه ؛ عملا بقوله تعالى :

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * ﴾[4] وقوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ[5] وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ[6] وَأَعْرِضْ[7] عَنِ الْجَاهِلِينَ[8] * ﴾ .

---

(١) يخرج لسانه من العطش . (٢) جازاه . (٣) يميــل .
(٤) سورة الحجر (٩٤) . (٥) اليسر من أخلاق الناس ولا تشدّد عليهم .
(٦) المعروف المستحسن . (٧) لا تقابلهم بسفههم . (٨) سورة الأعراف (١٩٩) .

(١) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ومانيـل منه شىء قط فينتقمَ من صاحبه ألا أن يُنْتَهَكَ(١) شىء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل .

(٢) وحسبك دليـلًا على ذلك عفوه عليه الصلاة والسـلام عن الكافرين المقاتلين له فى أشدّ ما نالوه به من الجراح والجَهـد، بحيث كُسرت رَبَاعِيَتُـهُ(٢) وَشُجَّ وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، وكان أثر ذلك فى نفس أصحابه شديدًا، حتى قالوا : لو دعوت عليهم، فقال : «إنى لم أُبعث لَعَّانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومى، أو اهد قومى، فإنهم لا يعلمون» .

(٣) ثم إن أردت أن ترى مكارم الأخلاق متجســمة، والمروءة قائمـة، والإفضال كاملا، والعفو عند المقدرة ماثلا، فتأمل ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مع مشركى قريش الذين لم يألو جُهدا فى إيذائه، و إلحاق أشدّ ضروب الضرر بأصحابه، والذين دبّروا تلك المؤامرة الشـنعاء على هدر دمه وتوزيعـه بين القبائل، فألجئوه وأصحابه إلى ترك أحب البلاد إليه و إلى الله، ولم يقفوا عند ذلك الحدّ، بل قاتلوه، وأَلَّبُوا(٣) عليه مشركى العرب .

ولمـا فتح الله عليـه مكة تطاعت النفوس، واشْرَأَبَّتِ(٤) الأعنـاق، وشخصت الأبصار إلى ما هو فاعل من الانتقام ممن أوقعوا به أشدّ أنواع الإيذاء، وأذاقوه أمر الآلام، ولكنه توّج هذا الفتح الجليل، بالعفو النبيل، والصفح الجميل، قال صلى الله

(١) يتناول و يرتكب . (٢) السن التى تلى السنين الأماميتين يمينا ويسارا وأعلى وأسفل .
(٣) جمعوا . (٤) امتـدّت .

عليه وسلم يومئـذ : " يا معشر قريش مَا تَرَوْنَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء » أى الأحرار .

(٤) وعن زيد بن سُعَنَة « أجل أحبـار اليهود الذين أسـلموا » أنه قال : لم يبق من علامات النبوّة شىء إلا وقـد عرفته فى وجه محمد حين نظرت إليـه ، إلا آثنتين لم أَخْبُرْهُمَا منـه : يسبق حلمُه جهلَه ، ولا تستزيده شـدّة الجهل عليه إلا حلما ، فكنت أتلطف (١) له لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله ؛ فابْتَعْتُ (٢) منه تمرا إلى أجل ، فأعطيته الثمن ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : أَلَا تقضينى يا محمد حقى؟ فوالله إنكم يا بنى عبـد المطلب مطل ، فقال عمر : أى عدوّ الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع ! فوالله لولا ما أحاذر فَوته لضربت بسيفى رأسـك ! ورسـول الله ينظر إلى عمـر فى سكون وتُؤَدَةٍ (٣) وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر : أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة : اذهب به ياعمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعا (٤) مكان ما رُعْتَه (٥) ، ففعل ، فقلت : يا عمر كل علامات النُّبُـوّة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدّة الجهل إلا حلمـا ، فقد خبرتهما ، فأشهدك أنى قد رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، ومحمد نبيا .

---

(١) أترفـق . (٢) اشتريت . (٣) المطالبة بحق .

(٤) الصاع : مكيال قدره خمسة أرطال وثلث عندالامام مالك والشافعى وثمـانية عند أبى حنيفة .

(٥) أفزعته .

(٥) وعن أنس بن مالك قال: كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليــه رداء نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبــذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليــه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شــدة جَبْذَتِه، ثم قال : يا محمد، مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء .

وفى هذا كمال خلقه صلى الله عليه وسلم، وتمام حلمه، وصفحه الجميل الجاهلين، ودفع السيئة بالحسنة .

(٦) ومن سامى خلقه، وعظيم صفحه، وواسع حلمه، إغضاؤه عن الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر . وذلك مما تنفر منه ا البشرية حتى تؤيدها العناية الإلهية بالمقامات العلية، والأخلاق المرضية .

٧ — محمد صلى الله عليه وسلم

أفضل الخلق أجمعين

جدير بمن جاء بخير الأديان، أن يكون أفضل إنسان :

(١) فمحمد صلى الله عليــه وسلم أفضل الخلق جميعًا ، قال وهو الصا المصــدوق :

﴿ إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم : من خير فرقهم وخير الفريقين ثم تَخَيَّر القبائل فجعلنى من خير قبيــلة ، ثم تَخَيَّر البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ؛ فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا ﴾ .

(٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهـما قال : جلس ناس من أصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون : فقال بعضهم عجبًا ؛ إن الله عز وجل اتخذ من خلقـه إبراهيم خليلًا ، وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى : كلمه ربه تكليما ، وقال آخر : فعيسى كلمـة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ؛ فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم : خليـل الله وهو كذلك ، وموسى نجى الله وهو كذلك ؛ وعيسى روح الله وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا [illegible]واء الحمـد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع يوم القيـامة ، وأنا أول من يحرك حَلَقَ الجنة فيفتح الله لى فَيُدْخِلُنِيهَا ومعى فقراء المؤمنين [illegible]ر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر .

(٣) وقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » .

قال الهروى : السيد هو الذى يفوق قومه فى الخـير . وقال غيره : هو الذى [illegible]غ إليه الناس فى النوائب والشدائد ، فيقوم بأمرهم ، ويتحمل عنهم مكارههم ، بدفعها عنهم .

(٤) وليس أدل على أن النبي صلى الله عليـه وسلم أفضل الناس أجمعين من [illegible]ن الله تعالى أخذ على جميع النبيين عهدًا إن طالت مدتهم وامتدت بهـم حياتهم ، حتى جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وينصروه ، وأقـروا على ذلك وشهدوا ، وشهد الله معهم .

تقرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة آل عمران (٨١) :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ (١) ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى (٢) ، قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * ﴾ .

ففى هـذه الآية الدليل على أنه صلى الله عليـه وسلم أفضل الأنبيـاء الذين هم أفضل ممن عداهم ، فيكون أفضلَ الخلق أجمعين .

٨ — محمد صلى الله عليه وسلم

خـير العظماء الذين أنقـذوا الإنسانيـة

إن الوجوه التى كان بهـا النبى صلى الله عليـه وسلم خير منقذ للإنسانية كثيرة جدًّا يستنبط معظمها مما تقدّم ، ولكنا نجمل لك أهمها :

(١) بعث صلى الله عليـه وسلم وقد ظهـر الفساد فى البر والبحـر ، وانتشر فى البدو والحضر ، وطبق جميع الأمم ، واحتل كل مرافق الحياة ، وغَشَّى القلوب ، فزاغت العقائد ، وساءت الضمائر ، فجـاء بدين سَمْح عام ملائم لكل الأمم فى جميع بقاع الأرض ، كفيل بعلاج جميع أمراض الفرد والجماعة : توغل فى جميع حنـايا النفس واصفا كل حالة لها ، مبينا حكم الله فيها ، وهيمن (٣) على شئون الاجتماع البشرى ، وأوضح ما لكل شأن من نفع وضر ، وما ينبغى فيـه من فعلٍ وهَجْر ؛ و بذا فَصَّـل جميع الأخلاق الفردية ، والخلال الاجتماعية ؛ فمـا ترك بابا للفساد إلا أغلقـه ، ولا وجها للإصلاح إلا حققه .

(١) عهـد . (٢) عهـدى . (٣) راقب وأشرف .

(٢) رسالته صلى الله عليه وسلم خير نصير للعقل على التخلص من قيود الأوهام والخرافات ، والأباطيل والأساطير ، تلك الأمور التي كَلَّتْهُ[١] الدهور الدهارير .

أخذت هـذه الرسالة بيده إلى التفكير فيما يُطيفُ[٢] به من الكون ؛ ليقوم لديه أكبر برهان على المبـدع العظيم ، وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تستحث العقل على التدبر في عجائب المخلوقات :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * ﴾[٣] .

وبالتفكر تصـفو النفس من أكدار الحياة الدنيـا ، ويطهر القلب من أدران العقائد السقيمة ، ويتجلى للعقل اتصاف الخالق بكل كمال ، وتنزيهه عن كل نقص ؛ ولذلك كان التفكر في ملكوت السموات والأرض من أسمى أنواع العبادات ، فقد ورد في الحديث « تَفَكُّرُ ساعة خير من قيـام ليـلة » ، وقال العارفون : إن تفجير ينابيع الحكم من القلب لا يكون إلا بالفـكر ؛ ولذلك كانت عبـادة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة الفكر عند أهل التحقيق .

(٣) جاء الإسلام مؤيِّدًا للعـلم ومؤيَّدًا به ، مُنَوِّهًا[٤] بعظيم شأنه ؛ فأول آية نزلت من القرآن الكريم تُشيدُ بذكر العلم ، وتَعُدُّه من عظيم نعم الله ، وواسع كرمه :

﴿ اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ[٥] * اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * ﴾[٦] .

---

(١) قيـــدته . (٢) يحيـــط . (٣) سورة الغاشية (١٧ — ٢٠) .
(٤) رافعا ذكره ومعظما له . (٥) دم غليظ . (٦) سورة العلق (١ — ٥) .

وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من سلك طريقًا يبتغى فيه علما سلك الله له طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتانُ فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب؛ إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» .

وبالعلم كان العلماء أعرف الناس بربهم، وأشدّهم خشية له، « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُ » (١) ولذلك رفع الله قدرهم، وأعلى ذكرهم ، « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (٢) . ولا غرابة فى هذا؛ فهم القدوة والأسوة، وإليهم المفزع إذا حزبت الأمور، وادْلَهَمَّتِ الخطوب، وتراكمت سحائب الحيرة، (٣) قال تعالى : « فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * » (٤) .

وبهذا تعرف أن الخصومة التاريخية بين رجال الدين وبين العلماء ، أوكما يقولون : بين الدين والعلم — ليست من الدين الإسلامى فى شىء، بل هو منها براء ؛ إذ هو يشجع العلم والبحث والتحقيق ؛ ولذا كان العلم الصحيح خير هاد إلى ذلك الدين القويم ، وكلما تقدّم العلم إلى الأمام، امتدت به خطواته نحو الإسلام.

(٤) جاء صلى الله عليه وسلم بدين الإسعاد، فى المعاش والمعاد؛ فكما أنه دين العقل والعلم، هو دين الدنيا والآخرة، وهو دين إصلاح لهما فى حياة رسوله ، وبعد

(١) سورة فاطر (٢٨) . (٢) سورة الزمر (٩) . (٣) كشف ظلامها .
(٤) سورة الأنبياء .

لقائه ربه، وسيبقى بمشيئة الله كذلك إلى يوم القيامة، وذلك لأن معجزته الكبرى: وهى القرآن باقية ما بقى الزمان، محفوظة من غوائل الحِدْثان.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

وأما معجزات سائر الأنبياء عليهم السلام فقد انقضت بانقضاء حينها، وامتدت يد العبث بالتحريف والتبديل والحذف والزيادة إلى كتبهم وشرائعهم.

ومن الحكم الإلهية، والعناية الربانية أن ما يتعلق بالعقائد قد بسط فى القرآن بأوضح بيان، حتى لا يتسرب الى العقيدة ما يَشُوب (٢) صفاءها، أو يكدّر نقاءها.

وأما ما يختص بالمعاملات والأحكام فقد أجمل فى قواعد كلية: تستنبط منها الجزئيات، على حسب الأيام والعرف والجهات.

وأفضل أسباب الحضارة ووجوه العمران، يتسع له صدر القرآن.

(٥) كانت طريقة النبي صلى الله عليه وسلم فى دعوته تربى الاعتماد — بعد الله — على النفس، وقوةَ الإرادة، والشجاعةَ والإقدامَ، والصبر على مقارعة الحوادث والآلام، وتُحَبِّبُ المشورةَ والخضوعَ لرأى الكثرة، وتغرس حرّية العقل والفكر والعمل؛ فليس لأحد بعد الله ورسوله سلطانٌ على المرء فى ذلك، وتبث الشفقة والرفق والمحبة، وتُعْلِي الهمة، وتدعو الى الجد والسعى وحسن المعاملة، والإخلاص لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

والمهم فى هذا أن أعماله صلى الله عليه وسلم كانت دروسًا عملية، لهذه الأخلاق السنية؛ فلم يقف بها عند حد المحفوظات التى تحشى بها الأذهان، أو العظات

(١) سورة الحجر. (٢) يدنس.

القولية التى كثيرًا ما تُنَفِّرُ الإنسان ، بل بعمله صيَّرها لمن كان لهم شرف المشاهدة والاتّباع ملكاتٍ راسخةً : تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن البدر ، والأريج عن الزهر . ولذلك خَرَّج جيلاً جليلاً : عقائدُ أهله أرسخ من الجبال الشم ، وهممهم أسمى من الجوزاء ، أخلاقهم وطيدة ، وآراؤهم فى السياسة والإدارة والحرب والسلم رشيدة ، عاركوا الخطوب فعركوها ، وصارعوا أرقى الدول فصرعوها ، وأعلوا بذلك منار الإسلام ، ونشروا نوره بين جميع الأنام .

وما ذلك إلا لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان خير مثال للملوك والولاة والأمراء ، والقوّاد والقضاة والحكماء ، والمرشدين والسياسيين والمشترعين ، والمحاربين والمسالمين ، والعابدين والزاهدين . كل أولئك يجدون من صفاته وأقواله وأفعاله مُثُلاً كاملة ، يعملون على غرارها ، ويستضيئون بساطع نورها .

٩ — محمد صلى الله عليه وسلم

أجدر الناس بالإيمان به وطاعته ومحبته

قد استقرّ فى أذهاننا أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت لإصلاح فساد امتدّت أطنابه (١) على جميع الأمم ، وضرب رِواقَه (٢) على كل أنحاء العالم ونواحى الحياة ؛ فهى علاج كامل ، لوباء شامل ؛ ما تركت فضيلة إلا أقامت بنيانها ، ولا رذيلة إلّا هدّمت أركانها ، وبذا انتشل محمد صلى الله عليه وسلم العالم من وهدة الغواية ،

(١) جمع طنب وهو حبل الخباء ، ففى هذه العبارة تشبيه للفساد بخباء ضرب على الأمم جميعها .

(٢) بيت من الشعر يحمل على عمود واحد فى وسطه .

الى ذروة الهداية ، واستغنى الناس بالإســلام عن أى دين آخر سابق أو لاحق ، فهو الدين الذى أظهره الله على الدين كله، وارتضاه دون غيره لسعادة الدارين .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ * ﴾ [١] .

ومن يحاول الوصول من غير هذه السبيل فمحاولته فى تضليل .

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ * ﴾ [٢].

فالإيمـان بمحمد صلى الله عليه وسلم واجب تهرَعُ إليه النفوس الطاهرة ؛ لأن أعلام صدقه ظاهرة، ودلائل نبوّته متظاهرة .

وَالْإِيمَـانُ قَـوْلٌ وَعَمَـلٌ :

فأما القول : فالاعتراف باللسان أنه صلى الله عليه وسلم رسول الله حقًّا ، جاء بدين هو خير الأديان، وناسخها ، وخاتمها .

وأما العمل : فنوعان : عمل القلب وعمل الجوارح .

(١) عمـــل القلب

عمل القلب : التصديق بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم : من عقائد وأوامر ونواه .

ومن عمل القلب محبته صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يحب الناس من أنقذهم من براثن الضلال، وشفاهم من داء الجهل العُضال ، وهداهم الى محاسن الخلال، وما يَحْسُنُ به الحال والمـآل؟ واذا كانت النفوس قد جُبِلت على حب من أحسن

---

(١) سـورة آل عمران (١٩) .

(٢) سورة آل عمران (٨٥) .

اليها بوجه من وجوه الإحسان الفانيــة ، فما بالك بمن أحسن اليهــا بكل ضروب الإحسان التى بها سعادة الدنيا والآخرة ؟ إن المرء ليشعر بأن هذا الإحسان عظيم ، عَظَمَتُهُ غير محــدودة ، وأنه لا يستطيع أى إنسان — مهما عظمت محبته لك — غير محمد صلى الله عليه وســلم أن يسديه إليــك ، ولو كان أحد أبويك ، أو نفسَك التى بين جنبيك .

وإذ كان الحب أثرًا من آثار الإحسان — والأثر على قدر المؤثر قوة وضعفا — وجب أن يكون حبنا لمحمد صلى الله عليه وسلم يفوق كل حب؛ لأن إحسانه الينا يفوق كل إحسان ؛ فنحبه أَعْظَمَ من حبنا لوالدَينا وأولادنا ، وَأَعْظَمَ من حبنا لأنفسنا . قال صلى الله عليه وســلم : « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والنــاس أجمعين » وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليــه من ولده و والده والناس أجمعين » .

وقيــل لرسول الله صــلى الله عليــه وسلم : متى أكون مؤمنا صادقا ؟ قال : «إذا أحببت الله» فقيل : ومتى أحب الله؟ قال : «إذا أحببت رسوله» فقيل : ومتى أحب رسوله ؟ قال : « إذا اتبعت طريقته ، واستعملت سنته ، وأحببت بحبــه ، وأبغضت ببغضه ، و واليت بولايته ، وعاديت بعداوته . و يتفاوت الناس فى الإيمان على قدر تفاوتهم فى محبتى ، ويتفاوتون فى الكفر على قدر تفاوتهــم فى بغضى ، ألا لا إيمان لمن لا محبة له ، ألا لا إيمان لمن لا محبة له ، ألا لا إيمان لمن لا محبة له » .

والناس فى محبته درجات بعضها فوق بعض على حسب ذوقهم طعم الإيمان ، ومقدار شعورهم بمــا نالهم منه من إحسان : فمنهم من يشغل بذكره معظم الأوقات ،

بعد أداء الصـــلوات ، ومنهم من يذرف العبرات إثر العبرات، كما سمع أو قرأ طرفا من حكمه البالغات، ومنهم من اشـتدّ به الهُيام[1]، حتى اسـتعذب فى سبيله أقسى ضروب الإيلام .

والصحابة رضوان الله عليهم لهم من حبه صـلى الله عليه وسلم الحظ الأوفر؛ لمـا عمهم من نور المشاهدة، ومُنِحُوه من جميل الصحبة، ونالوه من ثمرة المعرفة، وهاك بعض الأمثلة التى تستبينُ منها عظيمَ محبتهم، وسامىَ إخلاصهم :

(١) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولًى يسمى « ثوبان » وقد بلغ من حبه له أنه فقد الصـبر عن البعد عنه؛ قدم على الرسول صـلى الله عليه وسلم يوما، وقد هُزِل جسمه، وامتقع لونه، وعلته سحابة من الكآبة ، فسأله النبى صـلى الله عليه وسـلم عما حل به ، فقال : يا رسـول الله ، ما بى وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقتك، واستوحشت من ذلك وحشـة عظيمة، فذكرت الاخرة حيث لا أراك هناك ؛ لأنى إن دخلت الجنـة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا[2] ﴾ .

والمراد أن الرؤية والمشاهدة ممكنة ؛ لزوال الحجاب الذى من عادته أن يحول دون ذلك فى الدنيا، وليس المراد أنهم جميعا فى درجة واحدة .

---

(١) العشق المشرف على الجنون .
(٢) سورة النساء (٦٩) .

(٢) لما أشيع يوم أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم قُتِلَ، وكثرت الصوارخ بالمدينة — خرجت امرأة من الأنصار تتعرف أخباره، فاسْتُقْبِلَتْ بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، وكلما مرت بواحد منهم صريعا قالت : من هذا؟ قالوا : أخوك، وأبوك، وزوجك، وابنك، قالت : فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون : أمامك، وما زالت سائرة حتى ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذت بناحية ثوبه، ثم جعلت تقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لا أبَالِى إذ سلمت مَن عَطِب .

(٣) لما أَخْرَجَ أَهْلُ مكة زَيْدَ بن الدَّثِنَّة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وإنى جالس فى أهلى، فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا .

(٤) وكان على كرم الله وجهه يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبَّ إلينا من أموالنا، وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ »، ولقد أقام البرهان على ذلك ليلة الهجرة : إذ أقدم بشجاعة وسرور على المبيت فى فراش النبي صلى الله عليه وسلم وقد علم أن قبائل العرب قد أجمعوا أمرهم على قتله فى تلك الليلة، فكان أول من قدم تفدية فى الإسلام، وباع نفسه فى سبيل الله ..

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبةُ آله الأطهار، وعِترته[1] الأبرار، وذريته الأخيار، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه أجمعين .

ومن حبه صلى الله عليه وسلم حُبُّ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وتعظيمهما؛ فإن من أحب إنسانا كان ما يصدر عنه آثَرَ شيء لديه، وأشهاه إليه، يُقْبِلُ عليه أعظم إقبال، ولا يعتريه من سماعه أو تلاوته شبع ولا ملال ، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه، أو كيف يمله وهو غاية مطلوبه .

ومن حبه صلى الله عليه وسلم حُبُّ أمته ؛ بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، يوالى من والاهم، ويعادى من عاداهم، ويكون معهم كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

(ب) عمـــل الجـــوارح

علمت أن عمل القلب : التصديق به صلى الله عليه وسلم ومحبته، وأما عمل الجوارح فثمرتهما وأثرهما : وهو القيام بكل ما أمر به صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن جميع ما نهى عنه، واقتفاء سيرته الذكية ، والتخلق بأخلاقه المرضية، ونُصرة دينه بالقول والفعل، والخشوع عند ذكره، والإكثار من الصلاة عليه . وهاك بيانَ هذا من القرآن الكريم :

(١) قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ * ﴾[2] .

(١) هم نسله وأقرباؤه . (٢) سورة آل عمران (٣١، ٣٢) .

(٢) وقال تعـالى : ﴿ مَنْ يُطِـعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا[1] * ﴾ .

(٣) وقال جل شأنه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَـرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ[2] أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ . لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[3] * ﴾ .

(٤) وقال سمت حكمته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ[4] عَلَى النَّبِيِّ . يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[5] * ﴾ .

اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه فى كل لحظة ، عدد خلقك ، و رضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك .

---

(١) سورة النساء (٨٠) .

(٢) تبطل .

(٣) سورة الحجرات (٢ ، ٣) .

(٤) الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الناس الدعاء .

(٥) سورة الأحزاب (٥٦) .

اساس الدين الاســـلامى

١ – الإيمـان بالله والرســل واليوم الآخر

أُسُس الدِّين الإسلامى التى لا يتحقق إلا بها، وأصوله التى لا وجود له بسواها – نوعان : علميّة وعمليّة .

والأسس العلمية ثلاثة : الإيمان بالله تعالى، وبرسله، وباليوم الآخر، والإيمان بالرسل يستتبع الإيمان بالكتب المنزلة عليهم، وبمن نزل بها من الملائكة .

وهذه الخمسة هى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ(1) أَنْ تُوَلُّوا(2) وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(3) ﴾ وفى قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(4) * ﴾ .

وهى التى أجاب بها النبى صلى الله عليه وسلم حينما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى وسأله عن الإيمان فقال : «الإيمان : أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره» .

(١) الإيمـان بالله

هو التصديق والإقرار بأنه لا إله إلا هو : أى لا معبود بحق إلا الله . وذلك يستدعى التصديق بأنه (موجود) لا أول لوجوده ولا انتهاء له؛ فهو متصف (بالقدم والبقاء) : لم يسبقه عدم ولا يلحقه فناء .

(١) الخير . (٢) توجهوا . (٣) سورة البقرة (١٧٧) . (٤) سورة النساء (١٣٦) .

وأنه (حىٌّ قادرٌ قاهرٌ)(١) : لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة(٢) ولا نوم، ذو المُلك والعزة(٣)، والخلق والأمر، الأرض والسموات فى قدرته، والخلائق جميعًا فى قبضته، خلقهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم .

وأنه (عَالِمٌ) : يحيط علمه بكل شىء : لا يعزب عنه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السـرائر .

وأنه تعالى (مُرِيدٌ) للكائنات، مدبر للحادثات ؛ فلا يجرى فى الملك قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه وقدرته، وحكمته ومشيئته ؛ فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحرّكوا فى العالم ذرّة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا عن ذلك .

وأنه تعالى (سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(٤) : لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعْد، ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى وليس له عينان، ويسمع بلا آذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، تعالى الله عن صفات المخلوقين علوا كبيرا .

---

(١) قادر لا يحصل فى ملكه إلا ما يريد . (٢) فتور يتقدم النوم . (٣) القوة والغلبة وعدم النظير . (٤) لا يبعد ولا يغيب ولا يخفى .

وأنه تعـالى (متكلم) : آمر، ناه، واعد، متوعد : بكلام قديم لا يشبه كلام الخلق؛ فليس بصوت ولا حرف .

وأنه تعالى (واحد) فى ذاته، وصفاته، ووجوده، وأفعاله :

فذاته ليست مركبة، ولا تشـبه ذوات المخلوقات ، ولا يساويه فى صـفاته موجود من الموجودات، وليس له شريك فى وجوده، ولا فى أفعاله ، فهو مخالف للحوادث فى كل شىء، وكلُّ ما سـواه من الموجودات : من إنس وجن، وملك وشيطان، وسماء وأرض، وحيوان ونبات، وسائل وجماد، وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس — مخلوق له ، حادث بفعله : اخترعه بقدرته بعد العدم، وأنشأه بعد أن لم يكن، على أحسن الوجوه وأكملها، وأتمها وأعدلها .

وهو (حكيم) فى أفعاله ، (عادل) فى أحكامه، لا يقاس عدله بعدل العباد؛ إذ العبد يُتَصَوَّر منه الظلم بتصرفه فى مِلك غيره ، ولا يُتَصوَّر الظلم من الله تعالى؛ فإنه لا يصادف لغيره ملكًا، حتى يكون تصرفه فيه ظلما .

(ب) الإيمـان بالرُّسل واليوم الآخر

يجب التصديق بأن الله تعالى فى أزمنة مضت، وحقب تعاقبت — اصطفى رجالًا من بنى آدم : منحهم مواهبَ عاليــة، وصفاتٍ ساميــة، وأخلاقًا راقية ، وأرسلهم إلى قومهم لِيُبَصِّروهم بخالقهــم العظيم ، وصفاته الجليــلة ، حتى يفردوه بالعبادة، وأنزل عليهــم بوساطة الملائكة كتبا تتضمن الأوامر والنواهى التى يريد تبليغها إياهم ؛ لتقويم اعوجاجهم، وإصلاح شأنهم، والسير بهم فى طريق الخير،

وتنحيتهم عن طـريق الشر، وإفهامهم أن كل إنسان سيجزى بمـا كسبت يداه، فى يومٍ يسمى : اليومَ الآخِرَ، ويوم القيامة : وهو يومٌ يقوم الناس جميعًا فيه من قبورهم؛ لجزائهم على ما قدّموا فى دنياهم من خير أو شر :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *﴾ [(١)] .

ويجب الإيمان بما يكون يوم القيامة مما ورد ذكره فى القرآن الكريم، أو أخبر به النبي صلى الله عليه وسـلم : من البعث، والحساب، والصراط، والمـيزان، والجنة والنار .

وما لم يَرِدْ به قرآن ولا سـنة صحيحة نُمسِكُ عنه، ونكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن أمور الآخرة لا تعرف بالعقل، بل بالخبر الصادق عن الله .

وصفوة القول : أن العقائد التى مرت بك من الإيمـان بالله وصفاته، والرسل وكتبهم، والملائكة وسفارتهم، واليوم الآخر وما يحـدث فيه، وغير ذلك مما جاءت به الحَنِيفِيَّةُ [(٢)] السمحة [(٣)] — أساسها كلها، ومصداقها جميعها التصديق والشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسـول الله؛ فإن التصـديق بهذه الشهادة يسـتلزم التصديق بشُعَبِهَا وفروعها كلها، وجميعُ أصول الدين وفروعِهِ من شعب هذه الكلمة .

ولا يكون العبد مصدِّقًا بها حقيقةَ التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمنا بالله إلٰه العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله، ونعوت كماله، ولا يكون مؤمنًا بأن الله لا إله إلا هو حتى يَسْلُبَ خصائص الإلهية عن كل موجود

---

(١) سورة الزلزلة (٧ ، ٨) .

(٢) طريق الاستقامة والمراد بها الديانة الاسلامية .

(٣) السهلة .

سواه، ولا يكون مصدّقًا بها مَنْ نفى الصفاتِ العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، وأنه أرسل الرسل لهداية البشر، وأنه اجتبى محمّدًا صلى الله عليه وسلم، وفضـله على الناس جميعا، وأنزل عليه القرآن : مُصَدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا(١) عَلَيْهِ(٢)، وأنه جَعَـلَ رسالته عامةً لجميـع الأمم، وناسخةً وخاتمـة للرسالات، وأنه أسرى به صلى الله عليه وسلم إليه، وأنه يُدَبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليـه . إلى سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة، مصدّقًا بها حقًا من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا *﴾(٣)، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ(٤) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّـاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَـٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَـدِيدٌ(٥) *﴾، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٦) *﴾ .

ولا يكون مصـدّقا بهذه الكلمـة من زعم أنه ترك خلقه سُـدًى(٧) : لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله .

فالتصديق بها يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها، وهى شرائع الإسلام، التى جاء بها سيد الأنام، والتى هى تفصيل هذه الكلمة العظيمة، وذلك بتصديق جميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه .

(١) شاهدا . (٢) سورة المائدة (٤٨) . (٣) سورة النبأ (٤٠) .
(٤) تنسى وتغفل . (٥) سورة الحج (٢) . (٦) خال من الشرك والنفاق من سورة الشعراء (٨٨، ٨٩) . (٧) مهملين .

فالمصدّق بالشهادة هو الذى يأتى بذلك كله ، ولا تنال سعادة الدارين إلّا بالتصديق بها ، والقيام بحقها ، ولا يحق الشقاء فى الدنيا والآخرة إلّا على تركها أو ترك حقها .

٢ ـ الإيمانُ وسيلةُ السعادة

الإيمان بالمعنى الذى سبقت الإشارة إليه سبب رقى الإنسان وسعادته ، ولولاه ماكان نظام العالم ، ولا عرف معنى الواجب ولا حدوده ، والواجب هو محور النظام بين الأفراد والجماعات والأمم .

وليس للشهوة ما يَقْمَعُها (١) ، ولا للأهواء ما يردعها (٢) إلا الاعتقاد بأن للعالَم صانعًا عالمًا بمضمرات القلوب ، ومطويات النفوس ، سامى القدرة ، واسع الحول والقوة ، مع اعتقاد أنه قد قَدَّرَ للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة .

وبغير هذين الاعتقادين لا تلبس المدنية سِرْبَال الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ، ولا تصفو صلات البشر من شوائب الغل والغش وما إليهما .

ومن أُشْرِب فى قلبه هذين الاعتقادين انبعث بحكمهما ، وانساق بحاديهما إلى إضاءة عقله بالعلوم النافعة ، والمعارف الصافية ؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يغضب ربه ، ويستوجب فى الآخرة عقابه ، ثم ينصرف همه إلى إبراز ماأودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية ، والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ؛ فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يقصر فى تقويم

(١) ما يقهرها و يذللها . (٢) يمنعها و يزجرها .

أخلاقه، ويَنْزِعُ إلى كسب المـال من الوجوه المشروعة، مُتَنَكِّبًا طريق الخيانة، ووسائل الكذب والحيلة، معرضًا عن أبواب الرشوة، مترفعًا عن الملق والخداع، ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق، وعلى الطريقة التى تنبغى، و بالقدر المطلوب: لا يأتى فيه باطلًا ولا يُغفِلُ حقًا .

فالإيمان يدعو المرء إلى الاتصاف بالصفات القويمة، والخلال العظيمة، والأفعال الكريمة؛ إذ يحث على ترقية النفس بالعلم، والجد والسعى، والمثابرة، وقوة العزيمة، واحترام النفس، والثقة بها مع التوكل على الله، والشجاعة، والاعتدال، والإخلاص فى العمل، والصدق فى القول، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والاتحاد على الخير، والتعاون على البر والتقوى، والعمل للدنيا والآخرة معًا فى غير غلو، وحسن المعاملة، والأمانة، والوفاء بالعهد، والحلم، والعدل، والتواصى بالحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، مع الرضا بقضاء الله وقدره : خيره وشره، والمحبة والمواساة، والرحمة والرفق .

وأعظم باعث على ذلك الصوم؛ فإنه تهذيب للنفس، وغرس للعطف والشفقة فيها .

وفى الصلوات الخمس تذكرة جميلة، وصلة قوية بين العبد وربه، ومَنْهَاةٌ للعبد عن ارتكاب ما يغضب سيده، وفى صلاة الجماعة نُهْزَةٌ (١) لعقد أواصر (٢) التعارف والتآلف، وبعثٌ على التواضع، والمساواة، والنظام، وأداء الواجب فى حينه .

---

(١) فرصة . (٢) جمع آصرة : وهى الرابطة .

وفى الزكاة والصدقة صلة ودّية بين الأغنياء والفقراء، وحَلٌّ لأعظم مشكلات الحياة الحاضرة، وقطع لأسباب الفوضى، وحفظ للأمن من شرور المتعطلين والمتطرفين .

والحج أعظم مؤتمر، وأكبر فرصة للبحث فى كل ما يعود على الأمة بالخير والإسعاد، فى المعاش والمعاد، وتوثيق للروابط بين الأمم الإسلامية، وتطهير للنفس مما دَنَّسها من علل وأوصاب (١)، وتذكير باليوم الآخر يوم لا أنساب ولا أحساب .

و إن فى القرآن الكريم لدعوةً صريحة إلى تأليف عصبة أمم إسلامية؛ لإصلاح ذات بينها، ونزع الأحقاد من قلوبها، وعقد الصلات الودية، والروابط الدينية، وكف يد الظلم والعدوان بالقوة والسلطان، قال تعالى فى سورة الحجرات (٩، ١٠) :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ (٢) إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٣) * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * ﴾ .

إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة التى احتواها الإسلام، وكل مزية منها عنصر من عناصر السعادة الحقيقية، مما جعل هذا الدين أحكم مرشد، وأهدى قائد إلى المدنية المؤسسة على المعارف الصحيحة، والأخلاق الفاضلة .

وهذه المزايا العظيمة قد سَعِد بها المسلمون الأوّلون، ورفعتهم إلى غرف الحضارة السامية، وأنزلتهم معاقل المنعة، وأحلتهم محل الكرامة، وأجلستهم على كرسى السعادة، فسادوا العالم ورفعوا لواء العرفان، ونشروا نور القرآن فى كل مكان.

(١) جمع وصب : وهو المرض . (٢) ترجع . (٣) العادلين .

الدين يدعو إلى المحافظة على النفس والمال

(ا) المحافظة على النفس

المحافظة على النفس : صونها من الأمراض الباطنة والظاهرة ، أو المعنوية والحسية : فالأمراض الباطنة هى الرذائل الخلقية . والأمراض الظاهرة ما يعترى الأجسام فيوهنها ، أو يعوقها عن القيام بعملها ، أو يودى بحياتها ، أو حياة عضو منها .

ولحفظ النفس من الأمراض الباطنة وسائل كثيرة أهمها :

(١) رياضتها بالعلم :

يجب أن يزيد المرءُ نفسه كل يوم علمًا جديدًا؛ ليدوم له صفاء العقل، ويبقى ما لذهنه من صقل، ويُذَلَّلَ له عملُه، ويستنيرَ سبيلُه ؛ ويستديم تمييز الضار من النافع، والخبيث من الطيب؛ فتسمو نفسه بالفضيلة، عن الوقوع فى مرض الرذيلة .

والنفس إذا أهملت النظر فى العلوم، وعدمت الفكر، والغوص على المعانى — كَدِرَت وصدِئت، وانقطعت عنها مادّة كل خير، وإذا أَلِفَت الكسل ، وركنت إلى العطلة تبلّدَت وتبلّهَت ؛ فلا تُميِّزُ خيراً من شر، وذلك نزول بها إلى رتبة البهائم .

وأما إذا عُوِّدَ الناشئ النظر فى العلوم ، وحُبِّب إليه من صغره مداومةُ البحث فيها ، فإنه يحتمل ثقل الرَّوِيَّة والفكر، ويألف الصدق، ويأنس بالحق ، ويَنْبُو طَبْعُهُ عن الباطل، وسَمْعُهُ عن الكذب .

(٢) اصطفاء الأصحـاب :

يجب على من يبغى المحافظة على صحة نفسه أن يصحب الأخيار، ويحذر الحذر كله من معاشرة الأشرار، فلا يُصْغِى إلى أخبارهـم مستطيباً، ولا يَرْوِى أحاديثهم مستحسنًا، ولا يحضر مجالسهم مبتهجًا. وأقل شىء من ذلك يعلق من دَنَسِه بالنفس ما لا يُغْسَل عنها إلا بالعلاج الصعب، فى الزمن الطويل، وربما كان سبباً فى فساد العالِم المُرْشِد، فضلا عن الناشئ المسترشد . قال عليــه الصلاة والسلام : «المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يُخَالِل» .

(٣) استقصاء العيوب :

يجب على المرء أن يستقصى عيوبه بدقة؛ ليقطع دابرها، ويَنْقُدَ نفسه نقد خبير غير مفتون بها، ولا مغرور فيها؛ ليستأصل شأفة رذائلها، مستعيناً على ذلك بخلصائه الذين لا يبخلون عليه بالنصيحة، ويقبل ذلك منهم مسروراً شاكراً .

والعاقل يستعين بأعدائه كما يستعين بخلصائه ؛ فكلما كشفوا له عيباً عالج نفسه منه، وكلما أظهروا رذيلة هجرها؛ فان خيار النــاس ينتفعون بأعدائهم، كما ينتفعون بأوليائهم، قال الشاعر :

عداى لهم فضــل علىّ ومنــة فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

وينبغى للحافظ على نفســه أن يتخذ من جميع معارفه مرءاة له ؛ فإذا رأى من أحدهم عيبًا اتّهم نفسه به، وعمل على الابتعاد منه .

(٤) محاســـبة النفس :

حَتْمٌ على المرء الذى يود أن يبقى معافى فى أخلاقه، أن يزن كل ما يصــدر عن نفسه بميزان العقل والدين ، ويَعْرِضَ عليهما كل ليــلة جميع أفعاله ؛ بحيث لا يترك منها صغيرة ولا كبيرة ؛ فإذا وقف على سيئة آشتد عذله نفسه وتأنيبُه إياها، وفَرَضَ عليها عقوبات مضادّة لهذه الذنوب :

فإذا أنكر من نفسه مبادرةً إلى طعام ضار، أو تَرْكَ حِمْيَةٍ كانت لازمة، أو تناول فاكهة غير موافقــة ، أو حلواء كذلك — عاقب نفســه بصوم لا يفطر فيه إلا على ألطف ما يقدر عليه وأقله .

وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب فى غير موضعه، أو على من لا يستحقه أو زيادة على ما يجب منه — فليقابل ذلك بلوم نفسه وتعنيفها، وإرضاءِ من غضب عليه، وليفرض على نفسه مالًا يُخْرِجُه صدقة .

وإن أنكر من نفســه كسلًا وتوانياً فى مصلحة له فليعاقبها بســعى فيه مشقة، أو بصلاة فيها طول، أو ببعض الأعمال الصالحة التى فيها كد وتعب .

وبالإجمال : يراقب المرء نفسه ، ويتدبر كل أموره، ويقيسها بمقياس العقل والدين ؛ حتى يدوم تحليها بالفضائل ، وتخليها عن الرَّذائل .

والمحافظة على النفس من الأمراض الجسمية تكون بعــدم تعريضها للحد أو القصاص، أو أى لون من ألوان التهلكة، أو الألم، أو الضعف، ومراعاة طرق الوقاية الصحية التى تتعلق بنظافة الجسم، ونظام الغذاء، وملاءمة الملبس، وصلاح المسكن، مع إعطاء النفس قسطها من الراحة، ونصيبها من الاستراضة .

(ب) المحافظـــةُ على المــال

جعل الله المــال شطر زينة الحياة الدنيا، فقال جل شأنه :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) ، وحث على السعى فى اكتسابه بقوله تعالى : « فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا (٢) مِن فَضْلِ اللَّهِ (٣) » ، وقوله : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (٤) وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ (٥) .

وعدّه سبحانه وتعالى نعمة امتن بها : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ (٦) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْوَلَدِ الصَّالِحِ » ، وعن ابن عمر، رضى الله عنهما : « احْرُثْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاحْرُثْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » .

ولما كانت الرغبة فى المال فطرية ، والشراهة عليه طَبَعِيَّة : قد تدفع المرء إلى التهامه حيثما وجد إليه سبيلًا — أوجب الله أن يُطلب من الوجوه المشروعة ، قال صلى الله عليه وسلم :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * ﴾ (٧) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٨) ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ (٩) أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَارَبُّ يَارَبُّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ » .

---

(١) سورة الكهف (٤٦) . (٢) اطلبوا من رزق الله . (٣) سورة الجمعة (١٠) .
(٤) جوانبها . (٥) سورة الملك (١٥) . (٦) سورة الاسراء (٦) .
(٧) سورة المؤمنون (٥١) . (٨) سورة البقرة (١٧٢) . (٩) متغير الشعر: متلبده وشعثه .

وعُنِي الإسلام بالمـال هذه العناية ؛ لأن به تصان النفس من الامتهان ، ولا تمتد اليـد إلى أى إنسان ، ولا تتطلع العين إلى نعم الله على عباده ، و به يُنَال المطلوب ، وتُغرس الكرامةُ فى القلوب ، وتكثر الأصـدقاء والأعوان ، وتُدْفَـع طوارئُ الحِدْثان ، وتُؤَدَّى منه الزكاة ، و ينفق على الفقراء وهم عيال الله ، ويُسْتَعَانُ به على العلم والعمل ، والذكر والفكر ، وجميع وجوه البر . و بعد ذلك « إنك أَنْ تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يَتَكَفَّفُون[1] الناس » .

قال الشيرازى : « لا تستهزئْ بالمـال وتميته ؛ فإن المـال آلة للمكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدِّين ، ومألفـة للإخوان ، ومُعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها . قيل لحكيم : لِمَ تجمع المـال وأنت حكيم ؟ قال : لأصون به العرض ، وأؤدِّىَ به الفرض ، وأستغنى به عن القرض . وفَقْدُ المـال يصحبه قلة الاكتراث[2] من الناس ، وتتبعه قلة الرغبة فيه ، والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس » .

لذلك كله أمرنا الله تعـالى بالمحافظة على المـال ، وسلوك سبيل الاعتـدال فيه : فلا تفريط ولا إفراط ، ولا إسراف ولا تقتير . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً[3] إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا[4] * ﴾[5] .

(١) يمدون أكفهم إلى الناس بالمسألة . (٢) الاهتمام أى إن الناس لا يبالون قليل المـال ، ولا يحفلون به ، ولا يقيمون له وزنا . (٣) الغل طوق من حديد يجعل فى العنق ، وجعل اليد مغلولة إلى العنق يراد به الإمساك عن الانفاق كل المسك ، كما يراد ببسطها كل البسط التبذير .
(٤) منقطعا لاشىء عندك . (٥) سورة الإسراء (٢٩) .

ومدح المعتدلين فى الإنفاق ، وجعلهم فى عداد عباده الذين يحبهم ، قال جل شأنه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * ﴾ (١) .

ونهى عن التبذير وذم المبذرين وجعلهم فى عداد الشياطين . قال تعالى :

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَٰنَ الشَّيَٰطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * ﴾ (٣) .

(١) وسطا ، آية ٦٧ من سورة الفرقان .
(٢) سورة الإسراء (٢٧) .
(٣) سورة الأعراف (٣١) .

عناية الدّين بالنظافة

طهارة البدن والثوب والمكان

لقد عنى الدين الإسلامى بالطهارة عناية فائقة ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * ﴾[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الطُّهُورُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » .

والنظافة ضربان : نظافة السرائر ، ونظافة الظاهر :

فنظافة السرائر : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة ، والرذائل الممقوتة : كالنفاق والرياء والحقد والحسد ، وتطهيره أيضًا مما سوى الله .

والغاية القصوى عمارة القلب بالأخلاق الحميدة ، والعقائد الرشيدة ، ولن يعمر بها إلا إذا نظف من نقائضها ، ونظفت الجوارح من الممنوعات ، وطهرت بالطاعات .

ونظافة الظاهر : تطهيره من الحدث ، والخبث ، مع نظافة الجسم .

والحدث نوعان : أكبر وأصغر .

فالأكبر : ما يوجب الغسل : كالجنابة ، والحيض ، والنفاس .

والأصغر : ما يوجب الوضوء : كالبول ، والغائط ، وسائر نواقض الوضوء .

فطهارة الحدث ضربان : طهارة الجسم كله : وهى الغسل ، وطهارة بعض أجزائه : وهى الوضوء .

---

(١) سورة البقرة (٢٢٢) .

والخبث : النجاسة العالقة بجسم الإنسان ، أو ثوبه ، أو مصـلاه ، ولا بد من إزالتها بالطهور، وبقاء لونها أو رائحتها يدل على بقاء ذاتها، فلا بدّ من إزالتهما إلا إذا تعسرت فيعفى عنهـا . وإزالة النجاسـة عن جسم الإنسان وثوبه ومكان صلاته شرط فى صحة الصلاة عند جمهور العلماء .

ونظافة الجسم : تجمُّل مطلوب ، وسنة جميلة ، وفطرة نقية .

وهى نوعان : إزالة أوساخ ، وفصل أجزاء :

فالأولى :

(ا) تنظيف شـعر الرأس واللحيـة ممـا علق به من غبار وغيره : بالغسل والترجيل والدهن .

(ب) تنظيف معاطف الأذن مما تجمع فيها : بمسح ما ظهـر ، والترفق فى تنظيف ما بطن .

(حـ) تنظيف داخل الأنف من الرطوبات المنعقـدة الملتصقة بجوانبـه : وذلك بالاستنشاق والاستنثار .

(د) إزالة ما يجتمع على الأسنان من القَلَح[1] : بالمضمضة والسواك .

(هـ) إزالة ما علق بالأصابع ، وما تحت الأظافير من الوسخ .

(و) تنظيف جميع البدن ممـا يجتمع عليـه برشح العـرق، وغبار العمل والطريق : وذلك بكثرة الاستحمام .

(١) تغير الأسنان بصفرة أو خضرة .

والثانيـــة :

حلق شعر الرأس ، وقص الشارب ، وشعر الأنف ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار ، وقطع زيادة السرة فى أوّل الولادة ، والختـان ، وما زاد عن التوسـط فى اللحيـــة .

والنظافة بضربيها تُجَمِّـلُ المرء ظاهرًا وباطنًا ، وتُعِدُّه لاستحقاق مِنَح القبول من الله والنـاس ، وتُلْبِسُه ثياب العافية ، وتزيل عنـه الكسل والفتور، وتغرس فيه النشاط والحبور .

يسر الاسلام ورفعه الحرج عن المسلمين

من لطف الله بعباده أن منحهم ديناً متيناً ؛ سهلا مع المقدرة، سَمْحا عند قيام المعذرة ؛ قال تعالى :

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) . وقال عظم لطفه : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (٢) .

فلا مشقة فى اتباعه ، ولا عناء فى القيام بأوامره ، ولا ضيق فى اجتناب نواهيه، قال جل شأنه :

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٣) . وقال عز وجل: ﴿طه * مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * ﴾ (٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ (٥)، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ (٦)، فَسَدِّدُوا (٧) ، وَقَارِبُوا (٨) ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ (٩) وَالرَّوْحَةِ (١٠) وَشَىْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ (١١) .

فالنبى صلى الله عليه وسلم يوضح فى هذا الحديث سهولة الدين ، ويدعونا إلى عدم التشدّد فيه، ويخبر بأن المشاد لا بدّ مغلوب ؛ فخير للمرء أن يتحرّى الصواب ، ويعمل على قدر طاقته ، بلا إفراط ولا تفريط ، ويَستعينَ على الطاعة بالعمل

---

(١) سورة البقرة (٢٨٦) . (٢) سورة البقرة (١٨٥) . (٣) سورة الحج (٧٨) .

(٤) سورة طه (١ ، ٢) . (٥) ذو يسر وسهولة لم يأمرنا إلا بما نقدر عليه فى غير مشقة .

(٦) لا يغالبه أحد ويتشدّد فيه إلا انقطع عن العمل . (٧) تحرّوا الصواب ، توسطوا .

(٨) ان لم تقدروا على الأكمل فاعملوا ما يقرب منه ، ولا تغالوا . (٩) الغدوة : أوّل النهار .

(١٠) الروحة : آخر النهار . (١١) الدلجة : آخر الليل .

وقت النشاط، وفراغ القلب من الشواغل، فيستلذ العبادة ، ولا يسأم الطاعة ، ويبلغ المراد، بلا إجهاد ، كما أن المسافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ، ويستريح هو ودابته فى غيرها، فيصل إلى القصد، من غير جَهد .

ولما كان فى التشديد حرجٌ ينافى الحكمة السامية كره الله تعالى المتشدّدين ، وعدّهم خارجين عن حدود الدين، قال تعالى فى سورة المائدة (٨٧، ٨٨) :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * ﴾ .

وعن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط (١) إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبىّ صلى الله عليه وسلم، فلما اخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا (٢)، وقالوا أين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدًا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدًا ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أَمَا واللهِ إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب (٣) عن سنتى فليس منى » .

---

(١) الرهط : ما دون عشرة من الرجال ليس فيهم امرأة . (٢) عدّوها قليلة .

(٣) لم يردها ولم يتمسك بها .

فالنبي صلى الله عليه وسلم ينفر من التشـديد، ويبرأ من المتنطعين والمغالين ، ويحث على التيسير، والتزام السـنة السمحة . وهذا هو الجدير بمن بعث رحمة للعالمين ، برسالة خاتمة للرسالات ، حتى ينشرح لهـا صدر الناس كافة، وتَقَرَّ بهـا عيونهم، وتميل إليها نفوسهم؛ فيتعلقون بأهدابها، ولا يشذون عن آدابها .

ومظاهر التيسير كثيرة فى مختلف العبادات، نذكر لك منها إباحة المسـح على الخفين، والجبائر ونحوها، والتيمم :

١ — المسح عَلَى الخفين

قد ثبت عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه مسح على خُفَّيْه؛ فقد روى عن الْمُغِيرَةِ ابن شُـعْبَةَ « أن النبي صـلى الله عليه وسـلم مسح على الخفين ، فقلت يا رسول الله، نسيتَ، قال : بل أنت نسيتَ، بهذا أمرنى ربى عز وجل » .

فيصح المسح على الخفين لعذر ، ولغير عذر .

طريقة المسح على الخفين : يضع المـاسح كَفَّهُ الأيمن مَنْشُورَ الأصابع على مُقَدَّمِ أعلى الخف الأيمن، ويضع الكفَّ الأَيْسَرَ كذلك على مقدّم أعلى الخف الأيسر ، ثم يَمرّ بهما على ظهر الخفين إلى الساقين .

عن على رضى الله عنــه : « لو كان الدِّينُ بالرأى لكان أسـفلُ الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه، وقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خُفَّيْه» .

شروط المسح : يشترط لجواز المسح على الخفين :

(١) أن يكونا ساترين لمحل غسل الفرض من القدمين .

(٢) أن يُلْبَسَا على طهارة كاملة .

واشترط كثير من الفقهاء أيضًا :

(١) أن يكونا ثخينين مانعين من وصول المـاء إلى الجسم .

(٢) وأن يمكن متابعة المشى فيهما .

مدّة المسح[(١)] : « عن شريح بن هانىء قال : سألت عائشة عن المسح على الخفين، فقالت : عليك بابن أبى طالب؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فسألناه ، فقال : جعل رسول اللهَ صـلى الله عليـه وسـلم ثلاثةَ أيّامٍ ولَيَالِيَهُنَّ للمسافر ، ويوماً وليْلةً للمُقِيـمِ » ، وتبتدئُ هـذه المدّة من وقت انتقاض الوضوء بعد لُبْس الخفين .

مبطلات المسح : يُبْطل المسحَ على الخفين أحدُ الأمور الآتية :

(١) كل ما ينقض الوضوء، وعند تجديد الوضوء يجدّد المسح على الخفين، إلا إذا كان ناقضُ الوضوءِ يوجب الغسل؛ فلا يكْفى حينئذ المسحُ، بل لا بدّ من خلعهما وغسل الرجلين .

(٢) خروج القدم كلِّها أو جُلها من الخفين، ويُكْتَفى حينئذ بغسل الرجلين إذا كان الوضوء باقيا، وإلَّا فلا بدّ منه .

(٣) وصول المـاء إلى القدم كلها أو معظمها، وهو يوجب غسل الرجلين .

(٤) انتهاء المدّة المقـدّرة له ، ويقتصر المرء على غسـل رجليه إن كان على وضـــوئه .

(١) أى عن مدّة المسح على الخفين .

٢ — المسح على الجبائر ونحوها

من عظيم يسر الدّين الإسلامى أن المرءَ إذا أصيب عضوٌ من أعضائه، أو جزءٌ من أجزاء جسمه بكسر، أو جرح، أو مرض لا يقدر معه على استعمال الماء فى الوضوء أو الغُسل — يَرْبِطُه ويمسح على الرباط : كُلِّه، أوْ جُلِّه، ويغسل الجزء الصحيح من العضو المصاب، إن كان غسله لا يضر الجزء المريض .

والرِّبَاطُ الذى يُشَدُّ على العضو المُصاب إن كان عيداناً لُفَّ عليها وَرَقٌ، أو قطن، أو نسيج، أو غيرها سمى جَبيرةً . وإن لم يكن فيه أعواد فهو لَصُوق أو عِصابة .

والمسح على الجبيرة ونحوها غيرُ محدود بزمن، بل هو كالماء : كلما توضأ المرء أو اغتسل مَسحَ عليها .

وإذا سقط الرّباط أو استبدل به غيره والعضو لا يزال مريضًا فلا ضرورة إلى المسح، لكن الأفْضَلُ إعَادَتُه .

٣ — التَيَمُّم

ومن مظاهر التيسير السامية فى الدين الإسلامى أنه إذا دخل وقت الصلاة ولم تجد ماء تتوضأ به أو تغتسل، أو بَعُد الماء عنك ميلاً شرعيًّا (نحو ألفى متر)، أو كان معك ماء ولكنك تخشى من استعماله مرضًا، أو زيادته، أو تأخر الشفاء منه، أو كنت تحتاج إليه لشرب إنسان أو حيوان ولو كلب حراسة، أو لعجن أو طبخ يضرك عدمه . أو تعذر عليك الوصول إلى الماء لأى سبب : كخوف

عدوّ ، أو حيوان مفترس ، أو فقدِ أداة من الأدوات التى تستعمل لإخراج المـاء من البـئر .

إذا جاء وقت الصلاة وحصل لك عذر من هـذه الأعذار أو يمـاثلها وجب عليك أن تتيمم وتصلى .

كـيفية التيمم :

تسمى الله تعالى، وتنوى استباحة الصلاة، وتضع يديك مُفَرِّقًا أصابعهما على تراب طاهر أو نحـوه : من كل طاهر من جنس الأرض ، ثم تنفض يديك ، وتمسح بهما وجهك،ثم تضعهما على التراب ثانية، وتمسح بهما يديك إلى مِرْفَقَيْكَ مُقَدِّمًا اليمنى، ثم تصلى ما تشاء من الفروض والنوافل .

نواقض التيمم :

ينقض التيممَ زوالُ العذر المبيح له ، وكلُّ ما ينقض الوضوء .

عمـــر بن الخطـاب

رضى اللهُ عنه

رجل ذو هيبة كبيرة، وشخصية خطيرة : تألفت من نظر بعيد، ورأى رشيد، وشـدّة فى الحق ظاهرة، وعناية بأحوال الرعية، وسياسة جد مرضية . كل هـذا فى قوّة إيمـان : يرضاها الرحمن، و يرهبها الشيطان، ويخشاها الظَّلوم، و يَلوذُ بهـا المظلوم؛ فيضعف أمامها الأقوياء، ويقوى بها الضعفاء .

كان عمر فى ذلك كله، وفى كثير غيره مضرب الأمثال، وموضع الإعجاب والإجلال، عنـد جميع الأمم وعلى توالى القرون والأجيال . وللإشارة إلى أن عمر كان جُمَّاعَ خير الخصال ، و جميل الفعال ، قال سـيد الخلق صلى الله عليه وسلم : «لَوْ كانَ بَعْدِى نَبِي لَكانَ عمرَ بنَ الخطابِ» .

وهو مع ذلك كله ينتمى إلى أشرف الآباء، وينتسب إلى خير القبـائل ؛ فهو عمرُ بْنُ الخطاب بْنِ نُفَيْل من بنى عَدِىِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَىِّ بنِ غالب القرشىُّ، وأمه حَنْتَمَةُ بنت هاشمِ بنِ المغيرةِ من بنى مخزومِ بنِ يقظةَ بنِ مرةَ .

وُلِدَ لثلاثَ عشرةَ سنةً من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسلم فى السنة السادسة للبعثة ، وتولى الخلافة بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنهما يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة سـنة ١٣ هـ، وتوفى (متأثرًا بطعنات أبى لؤلؤة) ليلة الأربعاء لِثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية .

شخصيته الخطيرة، وهيبته الكبيرة :

كان لعمر فى جاهليته و إسلامه شخصية بارزة، ومنزلة سامية، وهيبة عظيمة:

(١) أما فى الجاهلية فيكفى فى الدلالة على ذلك أن تعرف أن عمر كان سفير قريش : إذا وقع بينهم و بين غيرهم حرب، واتسع المجال للفاوضة بين المتحاربين — ارتضوه مفاوضًا، و بعثوه سـفيراً، و إذا نافرهم[1] منافر، أو فاخرهم مفاخر، أرسـلوه منافراً ومفاخرًا، وتلك منزلة تشرئب إليها الأعناق، وتتطلع النفوس، وتمتد الآمال، ولكن لا يحظى بها إلا عظماء الرجال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى هذه المنزلة العظيمة لعمر، و يرى فيه لذلك قوة كبيرة لهـا أثرها، وروحا قوية لها قدرها، و يتمنى أن تكون تلك القوة للإسلام أَزْرًا، وهذه الروح للسلمين عزًا ونصرًا؛ فكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه:

« اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ : بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » ؛ و يقول : « اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ » .

(٢) إســلام عمــر :

وتستطيع أن تلمح ما كان لعمر من هيبة، وما له فى قلوب القوم من رهبـة ، من ثنايا قصة إسلامه :

كان عمر شديد الإيذاء للسلمين ، فأُخْبِرَ أن أخته و زَوْجَها قد أسلما ، فذهب إليهما حانقًا ؛ وما قرع الباب، وأخبر أنه ابن الخطاب، حتى أسرع الفَرَق[2] إلى من

(١) المنافرة : المحاكمة ؛ يقال : نافرته إلى الحكم فنفرنى عليه : أى حاكمته إليه فغلبنى عليـه وأصل المنافرة قولهم : أينا أعز نفرا ، والمفاخرة : المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك .
(٢) الخوف .

فى الدار ؛ فأهْرِعُوا[1] إلى الاختفاء فى أنحائها ، ومن شدّة فزعهم تركوا الصحيفة القرآنيــة التى كانوا يقرءون فيها ، فسأل أختــه وزوجها عن هينمتهما[2] فأنكرا أولاً ، ثم اعترفا ونطقا بالشهادتين ، فوثب على زوج أخته وثبة عنيفة ، وحاولت أخته دفعه ، فضربها ضربة أسال الدم من وجهها ، وأخذ الصحيفة وقرأ مافيها ، و إذا نُورُ القرآن يصل إلى لبِّــه ، و بشاشَةُ الإسلام تتخذ طريقها إلى قلبــه ، و يظهر ذلك على لسانه فيَسُرُّ مَن فى المنزل ، و يَنْسَون ما لحقهم من إيذاء ، و يظهر من لجأ منهم إلى الاختفاء ،

وسأل عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُرْشِدَ إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم فى لِحْفِ[3] الصفا ، فأسرع إليها ، ولما علم المسلمون بقدومه وَجِلوا[4] جميعًا ماعدا حمزة ، ولم يجرؤ واحد منهم أن يفتح له الباب من شدّة فزعهم ، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتحه ، فدخل وأخذ رجلان بِعَضُدَيْهِ خَشْيَةَ أَنْ يَبْطِش بأحد ، فأمرهما النبى بإرساله ، فجلس بين يديه ، فأخذ النبى بمجمع قميصه وجذبه إليه ، ثم قال :

« أَسْلِمْ يَابْنَ الخَطَّابِ ، اللَّهُمَّ اهْدِ قلْبَه » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

(٣) أثر إســلام عمــر :

وَلِمَا كان لعمر من مكانة سامية لم يكن إسـلامه حَدَثًا عَادِيًّا ، بل كان حدثًا قويًّا ، له دَوِيُّهُ المديد ، وأثره البعيد ، ووقعه الشديد ، كان له ذلك عنـد المشركين وعند المسلمين :

---

(١) أسرعوا فى رعدة .
(٢) الهينمة : الصوت الخفى .
(٣) أصل الجبل المسمى بالصفا .
(٤) خافوا .

أما عنـد المشركين فقد أحدث ألمًا لاذعًا ، وحزنًا لنيـاط[1] القلوب قاطعًا ، وخذلانًا – لا محالة[2] – واقعًا .

وأما عنـد المسلمين فالسرور العام، والاغتباط التام، وفاتحة نصرٍ هام، وقوة للإسـلام . تلمح ذلك من قول ابن عباس رضى الله عنه : « لمـا أسـلم عمر قال المشركون : قد انتصف[3] القوم منا، وأنزل الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[4] * ﴾ .

وكان المسلمون يعبدون الله سرًّا، ويقومون بشعائر دينهم خفية؛ خشية بطش الكفار وإيذائهم، فلما أسلم عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إنْ مِتْنَا أَوْ حَيِينَا؟ قال بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى الْحَقِّ إنْ مِتمْ وَإن حَيِيتُمْ . قال : فَفِيمَ الاخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِى بَعَثَكَ بالحق لتخْرُجَنَّ، قال عمر: فأخرجناه فى صفين: حمزَةُ فِى أحدِهما، وَأَنَا فِى الآخَرِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَنَظَرَتْ إلىَ قريش وَإلى حمزة، فأصابتهـم كآبة لم يصبهم مِثْلُهَا ، فَسَمَّانِى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يومئذ الفاروق : فرق الله بى بين الحق والباطل . قال صهيب ابن سنان : لمـا أسلم عمر ظهر الإسـلام، ودعا إليه علانيـة، وجلسنا حول البيت حَلَقًـا، وطُفْنَا بالبيت، وانتصفنا ممن غَلُظَ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به .

وقال محمد بن عبيد : لقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلى .

وقال عبد الله بن مسعود : «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» .

(١) النياط : عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه . (٢) لا بد .
(٣) أخذوا النصفة : وهى العدل . (٤) سورة الأنفال (٦٤) .

نظره البعيد، ورأيه الرشيد :

أوّلًا — كان العرب فى جاهليتهم يعترفون لعمر ببعد نظره، وسداد رأيه ؛ دل على ذلك اختياره للسفارة التى لا بدّ لها من عقل راجح، وبصيرة نافذة، وعارضة قوية، وحجة قاطعة .

ثانيًا — البرهان الساطع على أن ظنه كان يهجم على غوامض الغيوب، وفكره يغوص فى عميقات الأمور — أنه كان يرى الرأى فينزل القرآن مصدّقًا لفكرته، ومؤيدًا لوجهته، وقد تكرر ذلك حتى بلغ حد الكثرة، نذكر لك طرفًا منه على سبيل المثال :

(ا) روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر عند الكعبة فقال : « هذا مقام إبراهيم »، فقال عمر : أفلا نتخذه مُصَلًّى؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لم أومر بذلك »، فلم تغب شمس ذلك اليوم حتى نزل قوله تعالى :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

(ب) قال عمر : يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ؛ فإنه يكلمهن البَرُّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ (١) . ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (٢) ﴾ .

(حـ) وعن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : «اجتمع نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الغيرة عليه، فقلت لهن :

(١) ستر . (٢) سورة الأحزاب (٥٣) .

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ (١) . فنزلت هذه الآية» .

إلى غير ذلك مما يقوم برهانا جليا على أن ظن عمر كان سراجا ، ورأيه كان قبسًا وهاجا ، وأنه قد أُلهِم السداد ، وأُلقِى فى رُوعه الصواب ، فكان جديرًا بقوله صلى الله عليه وسلم : (قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ (٢) ، فإن كَانَ فِي أُمَّتِي منهم أحدٌ فإنّ عمرَ بنَ الخطابِ منهم) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ » .

ثالثا — المتأمل فى تاريخ عمر يستولى عليه الدَّهَش ، ويملك الإعجاب جميع أنحائه ، ويستقر الإجلال فى سويدائه ؛ لهذا العقل السامى ، والذكاء الفائق ، الذى نظم الجيوش الزاخرة ، وثلّ (٣) عروش الجبابرة .

اقرأ خطبه فى الجيوش وغيرهم ، وكتبه إلى القوّاد والولاة ، تر عقلًا كبيرًا ، وعلمًا غزيرًا ، وحزمًا أكيدًا ، وعزمًا شديدًا ، ورأيًا رشيدًا . تدبر ما وضعه من الخطط الحربية والنظم السياسية ، والمبادئ الاقتصادية ، والأحكام الادارية لجميع الممالك الاسلامية ، مع الاتقان ، والإشراف على تنفيذها بإحكام ، مما جعله فى التاريخ المثل التام ، على توالى الأعوام ؛ لكل قابس من الخلفاء والأمراء والقوّاد والفقهاء والقضاة والأفراد والجماعات . تدبر ذلك كله فى تاريخ عمر تر عقلًا عظيما ، وتدبيرًا حكيمًا ، وخبرة واسعة النطاق ، ودراية ممتدّة الآفاق . ولا عجب ؛ فإنما كان عمر يمتح (٤) من معين (٥) القرآن الذى لا يزال يفيض ، ويغترف من ينبوع الحديث

(١) سورة التحريم (٥) . (٢) ملهمون . (٣) أذهب ملكهم وعزهم .
(٤) يستقى . (٥) المعين : الماء الجارى .

الذى لا يجف ولا يَغيض، بغرب[1] من الإيمـان القوى ، والعقيدة الراسخة ، والهمة الشامخة، والنظر الثاقب ، والرأى الصائب . وهـو بلا ريب غرس النبوّة ، وَأَفق مَغْرِسًا نهايةً فى القوّة ، ومُتَخَرِّجٌ فى معهدِ أَسْمَى رسالة ، أُشْرب مبادئَهَا فَنَبَغ نبوغًا لم ير التاريخ مثاله .

شجاعتـــه النَّـادرة :

الحق أن جرأة عمر كانت خارقة ، وشجاعتـه بلا ريب صادقة ؛ إذ كان مَثَـل الجرأة فى أقصى إمكانها ، والشجاعة بجميع ألوانها : فهى فى صورة الإقدام ، كانت عنده فى أسمى مقام، وفى صورة العدل والشدّة فى الحق فى منزلة لا ترام، وفى الشفقة بالأمة والرفق بالضعفاء ، فى ذروة العـلاء ، وفى القيام بالواجب بلغت حدًّا جعله موضع الإعجاب، على مدى الأحقاب .

ودونك شيئا من بيـان ذلك :

شجاعتــه فى صـــورة الإقدام :

(١) إن النفس الكبيرة، ذات الهمة العالية، أبت على عمر حينما أسلم إلا أن يؤْذَى كما يؤْذَى المسلمون، وأن يحتال لذلك احتيالًا، يقفك لهذه الشجاعة إجلالًا، فيُعَرِّضُ نفسه للطغاة مخبرًا إياهم بإسلامه ؛ لعلهم ينالونه بأذى، فيكونَ قد أصابه ما أصاب إخوانه المسلمين . ولكن هؤلاء الطغاة يعرفون من هو عمر ، فيكتفون بالإعراض عنه، فيتألم عمر لذلك، ويشكو ألمه إلى أحد إخوانه، فيرشده إلى من يفشى إسلامه، لينال آلامه .

(١) الغرب : الدلو العظيـة .

فاسْتَمِع إليه يقص عليك تلك القصة العجيبة، قال :

« لا أحب إلا أن يصيبنى مايصيب المسلمين؛ فذهبت إلى خالى[١] وكان شريفا فيهم[٢]، فقرعت الباب عليـه، فقال من هذا ؟ فقلت : ابن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له : أَشَعَرْتَ أنى قد صَبَوْتُ[٣] ؟ قال : فعلتَ ؟ فقلت : نعم، قال لاتفعل! فقلت : بلى قد فعلت ، قال : لا تفعل ! وأجافَ[٤] الباب دونى وتركنى . قلت : ما هذا بشىء، فخرجت حتى جئت رجلاً من عظماء قريش، فقرعت عليه الباب ، قال من هذا؟ فقلت : عمر بن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له : أشعرت أنى قد صبوت ؟ قال : فعلت ؟ قلت : نعم، قال : لا تفعل ! ثم قام فـدخل وأجاف الباب، فلمـا رأيت ذلك انصرفت، فقال لى رجل : تحب أن يُعـلم إسلامُك ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا جلس الناس فى الحِجر واجتمعوا أتيت فلانا (رجلًا لم يكن يكتم السر) فاصغَ[٥] إليه ، وقل له فيما بينك و بينه : إنى قد صبوت ، فإنه سـوف يظهر عليك و يصيح و يعلنه، فاجتمع الناس فى الحِجر ، فجئت الرجل، فدنوت منه، فأصغيت إليـه فيما بينى و بينـه ، فقلت : أعلمت أنى صبوت ؟ فقال : ألا إن عمر بن الخطاب قـد صبا ، فمـا زال الناس يضربوننى وأضربهم ، فقال خالى[٦] : ما هـذا ؟ فقيل : ابن الخطاب، فقام على الحِجر فأشار بكمه، فقال : ألا إنى قـد جرت ابن أختى ، فانكشف الناس عنى . وكنت لا أشاء أن أرى أحدا من

---

(١) يقصد به أبا جهل . (٢) فى المشركين . (٣) ملت عن دينى وخرجت منه .
(٤) ردّه . (٥) مل اليه . (٦) يقصد بخاله هنا : العاص بن وائل السهمى والد عمرو بن العاص .

المسلمين يُضْرَبُ إلا رأيته وأنا لا أُضْرَب، فقلت : ما هـذا بشيء حتى يصيبنى مثل ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى إذا جلس الناس فى الحجر وصلت إلى خالى فقلت : اسمع ، فقال : ما أسمع ؟ قلت : جوارُك عليك ردٌّ ، فقـال : لا تفعل يابن الخطاب، قلت : بل هو ذاك، فقال : ماشئت . فما زلت أُضْرَبُ وأَضْرِبُ حتى أَعزَّ الله الإسلام» .

(٢) إن إسـلام عمر — كما علمت — قد غَيَّرَ حياة المسلمين الاجتماعية ؛ فبعد أن كانوا لا يقرءون القرآن إلا هَمْسًا، ولا يؤدّون الشـعائر الدينية إلا خُلْسة، ما زال عمر يقاتل ويناضل، حتى استطاع المسلمون إعلان عبادتهم . فالحق كان مستورًا، فأبى عمر له إلا ظهورًا، ونور الإسلام كان فى خفاء، فأقسم عمر أن يكون فى لألاء، قال للرسـول صلى الله عليـه وسلم : «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمـان» ، وقـد بلغ عدد المسلمين بعمر الأربعين، فهم فى قلتهم بين المشركين ذرّة فى صحراء، أو هباءة فى هواء .

إذا علمت ذلك تحققت عظمة تلك الجرأة التى ليس لهـا نظير، والعزيمة التى لا ترهب الجم الغفير، ولا يبالى صاحبها عدوان الجمـاهير.

(٣) ومن الشـجاعة التى لم ير لهـا التاريخ مثيـلاً : ما حدث من عمر حين هِجْرَتِه من مكة إلى المدينـة ، وذلك أن من سـبقه من المهاجرين كانوا يهاجرون فى خفاء؛ خيفة أن يحل بهم من المشركين الإيذاء . ولكن عمر سلك مسلكًا آخر : يقف المرء أمامه مشدوهًا، ويتأمله مأخوذًا من تلك الجرأة الباهرة : التى بهرت

القوم فأخرست ألسنتهم، وأوجبت أفئـدتهم[1]؛ فلم يُبْدُوا اعتراضا ولا ملامة، ولم يدفعوا إهانة، ولم يردوا اعتداءً على كرامة.

وماذا حدث من عمـر؟

روى ابن عباس عن على بن أبي طالب قال: «ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لمـا هم بالهجرة تقلد[2] سـيفه، وتنكب[3] قوسه، وانتضى[4] فى يده أسهمًا، واختصر عَنَزَتَه[5]، ومضى قِبَـل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكّنًا، ثم أتى المقام فصـلى متمكّنًا، ثم وقف على الحَلَق واحدة واحدة، وقال لهم: «شاهت[6] الوجوه! لا يُرغِم الله إلا هـذه المعاطس[7]. من أراد أن تَثْكَلَه[8] أمه، و يُؤتِم ولده، و يُرمِل زوجته — فليلقنى وراء هذا الوادى»، قال على: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم.

فما الذى دهى المشركين وأذهلهم فلم يدفعوا عن كرامتهم؟ أقُوّةُ عمر البدنية، أم أدواته الحربية؟ لم يكن الأمر مقصوراً على القوة البدنية، ولا الآلات الحربية؛ فإن فيهم من هو أكبر منـه شدّة، وأكثر عُدّة، وإنمـا هى العظمة تحيط بعمر، إحاطة الهالة بالقمر، والرهبة تنبعث من أنحائه، والجلال يُحْدِق به، فقوّته المعنوية أسمى من قوّته الحسية، تلك القوّة التى بثها فى قواده وجيوشه فأدالت دولا عريقة،

---

(١) جعلت قلوبهم تجب: أى تضطرب. (٢) وضع حمالته فى عنقه. (٣) ألقاها على منكبه: وهـو مجتمع رأس العضد والكتف. (٤) أخرجها من جعبتها ووضعها فى يده استعدادا. (٥) العنزة: عصا فى أسفلها حديدة، واختصرها: وضعها فى خصره أى وسطه. (٦) قبحت. (٧) الأنوف. (٨) تفقده.

وأزالت ممالك مؤثلة، وأقام على أنقاضها مملكة وطيدة، أدارها على تباعد أطرافها إدارة رشيدة .

شجـاعته فى صــورة العــدل :

كان عمر لا يعرف فى العدل هوادة، ولا يخشى فى الحق لومة لائم؛ فالكبير عنده صغير حتى ينتصف منه، والصغير كبير حتى ينتصف له؛ فهذا جبلة بن الأيهم ملك الغسانيين : كتب إليـه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له ، فقدم فى خمسمائة من قومه فقابله عمر ، ورحب به وأكرمه ، وأدنى مجلسه، ولمـا خرج للحج أخذ معه جبلة، فبينا هو يطوف بالبيت إذ داس إزارَه رجل من بنى فزارة، فانحـلّ، فرفع جبلة يده ولطم الفزارى لطمة هشمت أنفه، فاستعدى[1] عليه الخليفة ، فبعث إلى جبلة فأتاه، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، قال الخليفة: قد أقررت، فإما أن ترضى الرجل، وإما أن أُقِيدَه[2] منك، قال جبلة : ماذا تصنع بى؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ، قال : إن الإسـلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية ، قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية، قال عمر : دع عنك هذا؛ فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أقدته منـك، قال : إذًا أتنصر . قال : إن تنصَّرتَ ضربت عنقك؛ لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك، فلمـا رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظر فى هـذا ليلتى هذه . وقد اجتمع بباب عمر

(١) طلب منه النصرة والانتقام من المعتدى عليه . (٢) أقتص له منك .

من الغسانيين والفزاريين خلق كثير، حتى كادت تكون بينهم فتنـة، فلما أَمْسَوْا أذن له عمر فى الانصراف؛ ليفكر الليلة فى أمره كما طلب، وفى الليل فرّ جبلة إلى الشام، ثم إلى القسطنطينية حيث تنصر هو وقومه غير مأسوف عليهم .

وروى أنس قال : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال : يا أمير المؤمنين، هـذا مقام العائذ بك، فقال عمر : لقد عذت بمجير، فما شأنك؟ قال : سابقت على فرسٍ ابناً لعمرو بن العاص (وهو يومئذ أمير على مصر) فسبقته، فجعل يَقْمَعُنِي (١) بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عَمْرًا أباه، فخشى أن آتيكَ، فحبسنى فى السجن، فانفلتُّ منه، فهـذا الحين جئتكَ . فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدُك فلان، وقال للمصرى : أقم حتى يجىء، فقـدم عمرو، وشهد الحج؛ فلما قضى عُمَرُ الحج وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصرى ورمى اليه عمر بالدِّرَّة (٢) .

قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين؛ قال : يا أمير المؤمنين، قد استوفيت واشتفيت، قال : ضعها على صَلَعَةِ عمرو، فقال : يا أمير المؤمنين، قد ضربت الذى ضربنى، قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد، حتى تكون أنت الذى تنزع .

---

(١) يضربنى . (٢) ما يضرب به .

ثم قال : يا عمرو، متى تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه، ويقول : إنى لم أشعر بهذا .

شدّة عمر على عماله .

كان عمر شديدًا فى الحق على عماله، عظيم الرقابة لهم، أعظم عماله عنده منزلة كأقل أفراد الرعية أمام الحق، لا يغادر لهم صغيرة ولا كبيرة إلا آخَذَهُمْ عليها ؛ يستدعيهم فى موسم الحج لأقل شكاية، ويناقشهم فيها جهرة أمام الحجيج ؛ فإن كان الحق فى جانب الشاكى انتصف له، وإلا عاقبه، فكان الولاة يتجافون عن الظلم خوف التشهير فى موسم الحج، وأفراد الرعية لا يجنحون إلى الشكايات الباطلة خشية حلول العقاب . ترى ذلك فى خطبته الآتية :

«أيها الناس، إنى والله ما أرسل عمالًا ليضربوا أبشاركم(١)، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم، وسُنَّةَ نَبِيِّكم، فمن فُعِلَ به شيءٌ سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفس عمر بيده لأَقُصَّنَّهُ منه» .

فوثب عمرو بن العاص، فقال : يا أمير المؤمنين، أرأيتَكَ إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية، فأدب بعض رعيته إنك لَتُقِصُّهُ منه؟ قال : «إى والذى نفس عمر بيده إذًا لأُقِصَّنَّهُ منه، وكيف لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله يُقِصُّ من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فَتُذِلُّوهُمْ، ولا تُجَمِّرُوهُمْ(٢) فَتَفْتِنُوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تُنْزِلُوهم الغِيَاضَ(٣) فتضيعوهم» .

---

(١) جمع بشر : ظاهر الجلد . (٢) التجمير : حبس الجيش فى أرض العدوّ، وعدم المبادرة إلى إرجاعه وذلك يوقع الجنود فى الفتنة أى الإثم واختلاف الآراء، وذلك لاشتياقهم إلى أهلهم .

(٣) الغياض : جمع غيضة : وهى الشجر الكثير الملتف فى مغيض الماء .

وقد استدعى عمر كثيراً من عظماء الولاة بشكايات من بعض الأفراد : كسعد ابن أبى وقاص الفاتح العظيم شكاه بعض أهل الكوفة فوجده بريئاً .

وشُكِى إليـه عمار بن ياسر وهو من السابقين الأولين إلى الإسـلام ، ولعلك تذكر ما لاقاه آل ياسر من التعذيب حينما لَبَّوْا الدعوة الإسلامية، وكان عمار أميراً على الكوفة فاسـتقدمه أمير المؤمنين مع وفد من أهـل الكوفة ، ثم سأل الوفدَ عن مبعث ألمهم من عمار، فقال بعضهم : إنه ليس ذا كفاية ولا دراية، وقال بعضهم : إنه لا يفقه مَعْنًى لِمَـا اسْتُعْمِلَ فيـه من الإمارة، فاختبره عمر اختبار خبير بالكوفة وأهلها، ولم يطمئن إلى إجابته، فعزله .

وكان يراقب الولاة مراقبة دقيقة؛ فمن رآه فى سعة لم يعلم مصدرها صادر ماله كله أو بعضه، وكان يمنعهم من التجارة منعاً باتاً .

شدّة عمـر على نفسه وأهله :

وكما كان عمر شديدا على عماله ، كان شديدًا أيضًا على نفسه وآله ؛ فكان يرى أنه لا ينبغى له أن يتناول من مال المسلمين إلا بمقدار ما يعيش به أَوْسَطُ رجل من رعيته، فكان عطاؤه لا يفى بحاجة بيته ، وكثيراً ما اضطر إلى الاقتراض، وارتداء الثياب المرقعة :

(١) ولمـا رأى بعض الصحابة ما يقاسيه عمر من الشدّة أرادوا أن يكلموه فى ذلك، ولكنهم هابوه، فأتوا أم المؤمنين حفصةَ بنتَـه، وأعلموها بمـا أرادوا، وطلبوا إليها أن تخبره برغبتهم دون أن تذكر له أسماءهم ؛ خشية غضبه عليهم، فقال

لها : ياحفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أَهْلُ بيته ؟ فقالت : بلى، قال : « ناشدتك اللهَ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَبِثَ فى النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟

وناشدتك الله (١) هل تعلمين أن النبي لبث فى النبوّة كذا وكذا ســنة، لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليــه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليــه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمــائدة فرفعت، ووضع الطعام على الأرض ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رســول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال: منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها اثنتين كما كنتم تثنونها ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رســول الله كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فمــا يجد ثوباً يخرج به إلى الصــلاة، حتى تجف ثيابُه فيخرج بها إلى الصــــلاة ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صَنَعَتْ له امرأةٌ من بنى زُفَر كساءين : إزاراً ورداء، وبعثت إليــه بأحدهما قبــل أن يبلغ الآخر ، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصنع كذلك ؟

(١) سألتك بالله .

يا حفصة، قد كان لى صاحبان سلكا طريقًا، فان سلكت غير طريقهما سُلك بِى طريقٌ غيرُ طريقهما، و إنى والله سأصبر على عيشهما الشديد، لعلى أدْرِكُ معهما عَيْشَهما الرَّغيد .

(ب) « خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عُمَرَ بْنِ الخطابِ فى جيش إلى العراق ، فلمـا قفلا مرّا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهَّلَ ، ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال : بلى، ها هنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فَأُسْلِفُكُمَاهُ ، فتبتاعان به متـاعاً من متاع العراق ، ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤدّيان رأس المـال إلى أمير المؤمنين، ويكون الربح لكما ، فقالا : ودِدْنَا ذلك ، ففعـل ، وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المـال، فلما قدما باعا فأُرْبِحَا، فلما دفعا ذلك إلى عمر، قال : أَكُلُّ الجيش أسلفه مِثْلَ ما أسلفكما، قالا : لا، فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ؟ أدّيا المـال و ربحه، فأما عبـد الله فسكت ، وأما عبيـد الله فقال : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هـذا، لو نقص هذا المـال أو هلك لضمناه، فقال عمر : أدِّيَاه ، فسكت عبد الله و راجعه عبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين، لو جعلته قِراضا، فقال عمر : قد جعلتـه قِراضا، فأخذ عمر رأس المـال ونصفَ ربحه، وأخذ عبـد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب نصفَ ربح المـال » رواه الإمام مالك .

ولـما تحسنت العلائق بين أمير المؤمنين وملك الروم تهادت زوجُ أمير المؤمنين : أُمُّ كلثوم بنتُ علىّ بْنِ أبى طالب ، وملكةُ الروم ، فأخذ عمر الهـدية التى أرسلتها

ملكة الروم وكان فيها عقد فاخر، وجمع المسلمين مشاورًا إياهم فى أمر هذه الهدية، فكان الرأى أنها لحفصة فى مقابل هديتها، ولكن عمر أبى إلا أن يضمها إلى أموال المسلمين فى بيت مالهم، ورد على أم كلثوم بقدر ما أنفقت .

وأهدى أبو موسى الأشعرىُّ إلى عاتكة امرأةِ عُمَر طِنْفِسَةً (١) قَدْرُهَا ذراع وشبر، فدخل عليها عمر فرآها ، فقال أنَّى لكِ هذا ؟ فقالت : أهداها لى أبو موسى الأشعرى، فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نَغَضَ (٢) رأسها، ثم قال: علىّ بأبى موسى الأشعرى وأتعبُوه فأُتِىَ به قد أُتْعِبَ ، وهو يقول : لا تعجل علىّ يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ما يحملك على أن تُهدِىَ لنسائى ؟ ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه، وقال : خذها، فلا حاجة لنا فيها .

فتأمل هذه الشدّة من عمر على نفسه وأهله حتى يكونوا القدوة المثلى والأسوة الفضلى ، وتدبر هذه العفة العظيمة عن مال الدولة . إنها لعفة جديرة بالإجلال ، وحقيقة بأن تكون مضرب الأمثال .

وكان عمر إذا نَهَى الناسَ عن أمر جمع أهله فقال : « إنى نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة » .

اللهم إن هذه العدالة المطلقة لخليقة بأن تحل فى النفوس المكانة التى لا تنازع، وتنال فى التاريخ المنزلة التى لا تضارع .

(١) الطنفسة : بساط له خمل رقيق، وفى ضبطها لغات كثيرة أعلاها كسر الطاء والفاء .
(٢) تحــرك .

وليس ذلك بعزيز على الفاروق الذى كان ينتصف من نفســه وولده : روى الأحنف قال : كنت مع عُمَرَ بْنِ الخطاب فلقيــه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلق معى فَأَعْدِنِى (١) على فلان ؛ فإنه قد ظلمنى ، فرفع عمر الدِّرَّة فخفق (٢) بها رأســه ، فقال : تَدَعُون أمير المؤمنين وهو مُعَرَّضٌ لكم ، حتى إذا شُــغِلَ فى أمر من أمور المسلمين أتيتموه ... أَعْدِنى أَعْدِنِى . فانصرف الرجل وهو يتــذمر (٣) ، فقال عمر : علىّ الرجل فألق إليه المخفقة (٤) ، وقال امتثل (٥) ، فقال : لا والله ، ولكن أدَعُهَا لله ولك ، قال : ليس هكذا ، إما أن تدعها لله إرادة ما عنــده ، أو تدعها لى فأعلم ذلك ، قال : أدعها لله ، فانصرف ، ثم جاء عمر يمشى حتى دخل منزله ونحن معه ، فصلى ركعتين وجلس فقال : « يابن الخطاب ، كنت وضيعًا فرفعك الله ، وكنت ضالًّا فهداك الله ، وكنت ذليــلًا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يستعديك فضربته ! ما تقول لربك غدًا إذا أتيته ؟ » ، فجعــل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة شديدة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

فانظر إلى هــذه المحاسبة الدقيقة للنفس . إنهــا لا تصدر إلا عن ضمير حى ، وقلب نقىّ ، ومراقبة للولى جل وعلا .

شجــاعة عمر فى تقـــدير تبعتـــه (٦) :

لقــد كان عمر يقدّر تبعته قدرها ، ويعرف خطرها ، ويدرك عبئها ووزرها ، دل على شعوره بذلك أوّل خطاب ألقاه بعد مبايعته ، عقب وفاة أبى بكر رضى الله عنهما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

---

(١) انصرنى . (٢) ضرب . (٣) يلوم نفسه ويتوعد . (٤) العصا .
(٥) خذ المثل أى اضربنى مثل ماضربتك . (٦) مسئوليته .

« إنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مَثَلُ جَمَلٍ أَنِفٍ[1] اتَّبَعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ أَيْنَ يَقُودُهُ، أَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ » .

عبارة جدّ قصيرة، لكنها ذات معان غزيرة؛ إذ فيها دعوة، ووعد، ووعيد، وقوة فى حزم وعزم ويقين :

(١) ففى قوله : « مثل العرب كمثل الجمل الأنف اتبع قائده» دعوة للأمة إلى الطاعة التامة لكل مايدعو إليه الأمير، كالجمل الذلول المنقاد لكل من يقوده؛ لاضطراره إلى ذلك بحكم البُرَة[2] التى تؤلم أنفه .

وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كالجمل الأنِف إن قِيد انقاد، وإن أُنيخَ على صخرة استناخ »، فعمر يصف العرب بما يصف به النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن، وهو يطلب منهم أن يكونوا كذلك ، ولكنه صوّر الطلب بصورة الخبر، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم؛ فإن هذا النوع من الأساليب أبلغ أثراً فى النفس وأدعى إلى الطاعة ، وأجلب للانقياد : كما تقول لمن تحثه على فعل الخير : إنك كريم، جوّاد ، تحب الخير، وتسرع اليه ، فإن ذلك يحرك فيه عاطفة الخير، ويهيج أريحيته، أمّا إذا قلت له مثلاً : لماذا أنت بخيل ؟ ما هذا الشح بالمال القليل ؟ فإن هذا قد يدعوه الى العناد ، والحيد عن طريق الرشاد .

وقوله : فلينظر قائده أين يقوده : بيان للتبعة العظيمة التى نِيطَت به، والمهم الخطير الذى ألقى على عاتقه ، وأن ذلك يتطلب حزما وعزما ، وتدبيراً وتفكيراً ؛ لتقعَ أمور الدولة مواقعها، ولا تخطئَ أحكامُها مواضِعَها .

(١) هو الذى أوجعت أنفه الخزامة .
(٢) حلقة تجعل فى أنف البعير من نحاس ونحوه، والخِشاش من خشب، والخِزامة من شعر .

وعمر بهذا يوضح لرعيته واجبه، ويُصَوِّر لهم مسئوليته، و يقطع على نفسه عهدا، أن يسلك بالأمة سبيلا قصدا [1] .

وقوله : « أمّا أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطـريق » قَسَمٌ عظيم ، و وعد كريم، أمام الأمة بسـلوك الطريق القويم، وفى هذا القول أيضا وعيد للمخالفين؛ بأنه سيضطرهم بالشدّة الى سلوك هـذا الطريق، إن لم يُجْدِ معهم التنبيه الرقيق . دل على ذلك قوله : « لأحملنكم » فانـ العرب يقولون : حمـله على الأمر : إذا أغراه به، أو اضطره إلى فعله .

فهذا الخطاب على إيجـازه حوى ما لا تحتويه أكبر خطب العرش فى الدول الحالية فى أيامنا الحاضرة، على أن عمر قد توج خطابه بإنفاذه بدقة لاتعد لها دقة ، وحزم دونه كل حزم، وتدبير يفوق كل تدبير، وعدالة مطلقـة : دعته إلى شـدة حكيمة، وشفقة كريمة ، فاستعمل الشدّة مع عماله ونفسه وأسرته ، واستصحب الشفقة مـع عامة رعيته ، وكان بذلك مؤدِّباً حكيماً، وسياسيًا عظيما، وأميراً خبيراً، وأخًا كريمًا ، وأبًا رحيمًا .

بعض مظاهر لينه وشفقته ، وشعوره بتّبعته

كان عمر يَعُدُّ نفســه خادم الأمة، مسئولًا عن كل صغيرة وكبيرة تقع فى أنحاء البلاد الإسلامية، فكان يقول : « لو أن جملًا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب» . وكانـ يحمل دواوين القبائل إلى حيث تقيم،

(١) سهـــلا .

ويوزع عليها الأعطيات ، ولا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب ، فيُعطيهن فى أيديهن جميعًا .

وكان يطوف ببيوت فقراء المسلمين فى المدينة ، ويقرع أبوابها سائلًا النساء : أَلَكُنَّ حاجة ؟ أتريد إحداكن أن تشترى شيئا ؟ فيرسلنه فى حوائجهن يقضيها لهن من الأسواق، ومن لم تجد عندها مالا تشترى به اشترى لها من ماله الخاص .

ومن ذلك ما ورد عن الأوزاعى : أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مُقعدة : فقال لها : ما بال هذا الرجل يجيء إليك؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا : يُحضر لى ما يُصْلِحُنى، ويُخْرِجُ عنِّى الأذى، فقال طلحة : ثكلتك أمك ياطلحة ، لِعَثَرَات عمر تَتَبَّعُ !

ومن ذلك الحكاية المشهورة التى رواها أسلم مولى عمر قال : خرجت مع عمر ابن الخطاب إلى حَرَّةِ وَاقِمٍ[1] ، حتى إذا كنا بِصِرَار[2] إذا نار تُؤَرَّثُ[3] ، فقال : يا أسلم ، إنى أرى هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها ، وقدر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغون[4] فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء «وكره أن يقول : يا أصحاب النار» قالت المرأة : وعليك السلام ، فقال : أأدنو ؟ قالت : ادْنُ بخير أو دع ، قال : فما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود، وواقم : حصن بالمدينة . (٢) موضع بقرب المدينة .
(٣) توقد . (٤) يصيحون .

يتضاغون؟ قالت : الجوع، قال : وأىُّ شيء فى هذه القدر؟ قالت : ماء أُسْكِتُهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ، فقال : إى رحمك الله ما يُدْرِى عمرَ بكم ؟ قالت : يتولى أمورنا ويغفل عنا !

فأقبل عَلَىّ ، فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلًا[1] فيه كُبَّةُ[2] شحم ، فقال : احمله علىّ ، قلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله علىّ ، مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال فى آخر ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ لا أم لك ! فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا ، وجعل يقول : ذُرِّى[3] وأنا أُحَرِّكِ ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحيــة عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته ، حتى أنضج وأدم القدر[4] ، وقال : ابغنى شيئا ، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أسطح[5] لك ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضــل ذلك ، وقام وقمت معــه ، فجعلتْ تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهــذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وَجَدْتِنى هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية ثم استقبلها ورَبَضَ مَرْبِض[6] السبع ، فجعلت أقول : إن لك لشأناً غير هذا ، وهو لا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهــدءوا ، فقام وهو يحمــد الله ، ثم أقبل علىّ

(١) العدل : الجوالق : شبه الغرارة . (٢) قطعــة . (٣) يقول : ذرى الدقيق لأتخذ لك منه حريرة ، والحريرة : الحسا المطبوخ من الدقيق والدسم والمــاء . (٤) وضع فيها الادام .
(٥) أبسطه حتى يبرد . (٦) جلس جلوس الأسد ، وهو يشبه بروك البعير .

فقــال : يا أســلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألّا أنصرف حــتى أرى ما رأيت منهم .

ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال :

خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنــه فى ليلة من الليالى يطوف ويتفقد أحوال الناس، فرأى بيتا من الشعر مضروبًا لم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع أنين امرأة، ورأى رجلا قاعدًا فدنا منه، وقال له : مَن الرجل؟ فقال له : رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال : امرأة تمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق عمر والرجل لا يعرفه، فجاء إلى منزله، فقال لامرأته (أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما) : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك؟ قالت : وما هو؟ قال : امرأة تمخض ليس عندها أحد، قالت : إن شئت، قال : نخذى معك ما يصلح للمــرأة من الخرق والدهن، وأْتِ بقدر وشحم وحبوب، وجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى البيت، فقال : ادخلى إلى المرأة، ثم قال للرجل : أوقد نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها، والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج الطعام، وولدت المرأة. فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام ! فلمــا سمعها الرجل تقول : يا أمير المؤمنين ، ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين، أهكذا تفعل بنفسك؟ قال : يا أخا العرب، من ولى شيئًا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره؛ فإنه عنه مسئول، ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر رضى الله عنه، وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما يبقى فى البُرْمة ، وفى غد ائت إلينا، فلما أصبح جاءه ، فجهزه بما أغناه به وانصرف .

قال عبد الرحمن بن عوف : دعانى عمر بن الخطاب ذات ليلة، وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يُسْرَقَ شىء من متاعهم، فمضيت معه، فلما وصلنا قال لى : نم أنت، ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

هذه حوادث صغيره، ولكنها مرآة لتلك النفس الكبيرة، ذات العناية الفائقة، والشفقة العظيمة، والتواضع الجم، والعظمة الخالدة .

فلله درّك ياعمر! لقد أبرزت العدالة الإسلامية، فى صورة جلية نقية، وحققت المساواة تحقيقًا تتطامن له الرءوس إعظامًا ، وتخشع له القلوب مهابة واحترامًا ، وصوّرت الشعور بالتبعة ، صورة غير مصطنعة ، وفهمت واجبك فهمًا متيناً ، فقمت به قياماً بالإعجاب قمينا .

ولله عظمتك ياعمر! لقد تجلت عدالتك المطلقة فى شدّة حكيمة، وشفقة رحيمة وثقة بالله عظيمة .

أليس عظيمًا من كان يسير خلف البريد إذا قدم من أحد الثغور، أو من ميدان القتال، ويقف بالأبواب قائلًا للنساء : « أزواجكن فى سبيل الله، وأنتن فى بلد رسول الله، إذا كان عندكن من يقرأ فيها، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن» ثم يقول : « إن البريد يخرج يوم كذا ، فاكتبن حتى نبعث بكتبكن » ، ثم يدور

عليهن بالدواة والقراطيس والقــلم ، ويقول : « ادنين من الأبواب لأكتب لكن ما تشأن أن تقلنه لأزواجكن» ، ثم يجمع الرسائل ويسلمها إلى البريد .

وأعظم ممـا مر، وأحفله بالعبر : التي لا يدركهـا إلا أولو البصر — ما رواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس (سيد بنى حنيفة الذى قيل فيه : إذا غضب غضب معــه مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب) قــدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق فى يوم صائف شديد الحر، وهو محتجز بعباءة يهنأ بعيرًا من إبل الصدقة فقال : يا أحنف، دع ثيابك، وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هــذا البعير؛ فإنه من إبل الصدقة : فيه حق اليتيم والأرْمَلة والمسكين، فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلا أمرت عبدًا من عبيد الصدقة يكفيك هذا؟ فالتفت إليه عمر وقال : « وأىُّ عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هــذا، إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبــد للمسلمين ؛ يجب عليــه لهم ما يجب على العبد لســيده من النصيحة وأداء الأمانة » .

توثيق الصلات بين عمر وبين من جاوره من الملوك :

(١) قد ذهب عمر بنفسه إلى الشام، وعاهد أهل فلسطين على حفظ أنفسهم، وأمّنهم على أموالهم ومعابدهم، وخَلّى بينهم وبين شعائر دينهم .

(٢) ولمـا ترك مَلكُ الروم الحربَ، وكاتب عمر، وتقرّب إليه أجاب طلبته، وحقق رغبته وســيّر إليه البريد بمـا يريد ، وتهادت زوجُه أمُّ كُلثُــوم بنتُ عليّ، وملكةُ الروم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) وقَبِلَ تضرع ملك «البـاب»[1]، وتنازل له عن الجزية لِقـاء مساعدته على حرب المشركين، وكان عمر بذلك مشترعًا حكيمًا، وسياسيًا عظيمًا .

(٤) ولما جىء بالهرمزان (ملك الأهواز) أسيرًا عامله بالعطف والرحمة ، وأقامه بالمدينة مكرمًا، وفرض له عطاء، على الرغم من أنه كان قد نقض عهد المسلمين ، وكتب عمر إلى عامله بالبصرة يشدّد عليه فى التَّجَافِى عن الظلم ؛ استبقاء لولاء أهل الذمة، واستدامة لعون الله .

---

(١) مدينة كبيرة على بحر الخزر، وهى ثغر عظيم .

عائشــة رضى الله عنها

(١) كلمة موجــزة عنها :

هى السـيدة الطاهرة المبرأة أمُّ المؤمنين : عائشـةُ ، بنتُ السابقِ الأفضـل والصدِّيقِ الأكملِ، والخليفةِ الأولِ: أبى بكر عبد الله بْنِ أبى قُحَافَةَ التَّيْمِىِّ القرشى. وأمها أُمُّ رُومَانَ بنتُ عامِرِ بْنِ عُويمرٍ الكِنانيةُ ، فهى فى المجد الأثيل ، والشرف التليد، وزادَها نبلاً وفضلاً،وقدراً وذكرًا، أنها زوجُ خاتَمِ الأنبياء، وأشرفِ الأنام: سيدِنا ومولانا محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام. عقد عليها رسول الله صلى عليه وسلم قبل الهجرة، وبنى عليها بعدها .

وقــد أقامت السيدة عائشــة مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم تسع سنين، وتوفيت رضى الله عنها فى رمضان سنة ٥٨ من الهجرة ولهـا ست وستون سـنة ، ودفنت بالبقيع (١) .

(٢) علمهـا وفضلهـا :

كان للمدة التى قضتها السيدة عائشة مع النبى صلى الله عليه وسـلم كبير الفضل فى تخريجها فى الفقه الإسلامى واحدةَ زمانها، وفى رواية الأحاديث الشريفة فريدة إبّانها ؛ فقد رُوِى لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف ومائتا حديث وعشرة، ذكر البخارى منها فى كتابه مائتين وثمانيــةً وعشرين حديثا ، ولم لا تكون كذلك

(١) مدفن المدينـة .

وهى زوج رسول الله، وبنت صـدّيقه وخليفته ؟ قال عروة : كانت عائشة أعلم الناس بالقرآن وبالحديث وبالشعر، وكانت كلما ذُكِرَتْ أمَام «عطاء بْنِ أبى رَبَاح» قال : كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً فى العامة .

وكانت فصيحة اللسان، طلية البيان ؛ قال معاوية : «لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة، وقال ابن قيس : سمعت أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان بن عفان، فلم أجد فى أقوالهم الجزالة التى تترقرق فى كلام عائشة .

وكان لهـا ضلع كبير، وقدم راسخة فى علمى التاريخ والنجوم :

دل على ذلك ما يأتى :

(ا) توضيحها التاريخىّ العظيم لرد النجاشى على وفد المشركين، الذى ذهب إليـه بهدية عظيمـة ؛ ليغريَه بطـرد المهاجرين المسلمين مـن بلاده ، فقال : «لا حاجة لى بها؛ فوالله ما أخذ اللهُ منى الرشوةَ حين رَدّ على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناسَ فىّ فأطيعَهم فيه» ، ولم يَعْرِفْ مغزى هذا الكلامِ ، وما يشير إليه من حوادثَ تاريخيةٍ إلا السيدةُ عائشةُ؛ فإنها أوضحته — بذكر المؤامرة التى دُبِّرَتْ لإبعاده عن الملك وإخفاقها — إيضاحا أبان أنها فى التـاريخ أطولُ القـوم باعًا، وأوسعُهم اطلاعًا .

(ب) وفدت عائشـة بنت طلحة[1] على هشامِ بْنِ عبدِ الملكِ ، وكانت موضـع إعجابه فى معرفة أخبار العرب وأشعارها وأيامها، فما ذُكِر من ذلك شيء إلا أفاضتِ

(١) عائشة بنت طلحة أمها أم كلثوم بنت أبى بكر .

فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمّته، فقال لها هشام : أما الأوّل فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتى عائشة .

(٣) رجوع كبار الصحابة اليها فى المسائل الدينية :

كانت السيدة عائشة بغزير علمها ، وعظيم فضلها ، و بعد نظرها ، وثاقب فكرها ، ونفاذ بَصَرها — مرجعَ أجلاء الصحابة فى المسائل الدينية ، والمشكلات الشرعية ؛ يستضيئون بقبسها ، ويهتدون بنور نبراسها ، قال القاسم بن محمد : اشتغلت عائشة بالفتوى زمن أبى بكر وعمر وعثمان فَمَنْ بعدهم رضى الله عنهم، وقال أبو موسى الأشعرى — رضى الله عنه : — ما أشكل علينا — أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم — حديثٌ قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

(٤) تصدّقها فى سبيل الله :

لقد أُشربت السيدة عائشة من زوجها العظيم — صلى الله عليه وسلم — المبادئَ الإسلاميةَ الساميةَ، والأخلاق المحمدية العظيمة ؛ فكانت على أكبر جانب من الزهد فى الدنيا، والقناعة باليسير منها، مع أشدّ رغبة فى الصالحات، والاستكثار من الصدقات ؛ وبذا كانت أمّ المحسنين، كما كانت أمّ المؤمنين ؛ ويحدّثنا عروة ابن الزبير أنه رآها تتصدّق بسبعين ألْفَ درهم فى سبيل الله، وهى فى قميص خَلَق[١]، ودِرْع مُرَقّع .

ويقص علينا ابن سعد فى طبقاته عن أم ذرّة أن ابن الزبير بعث إلى عائشة بمال فى غِرَارتين يبلغ مائة ألف، فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة — فجعلت تقسم

(١) بال .

فى النـاس، حتى استنفدت المـائة ألف ، فلما أمست قالت : يا جارية، هاتى فِطْرِى ، فقالت أم ذرّة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحمًا تُفْطِرِينَ عليه ؟ فقالت : لا تُعَنِّفِينِى ، لو كنتِ أذكرتِنى لفعلتُ .

فتأمل مبلغ حب الإحسان الذى شغلها عن أمرها ، فلم تُبق من ذلك المـال الوافر درهمًا لفطرها ، وقسـه على مبلغ اهتمامنا فى صـيامنا بإعداد أشهى المطاعم لفطرنا ، تر الهوّة واسـعة، والمسافة بيننا وبينها شاسـعة، ولا غرابة؛ فهـذا هو المأمول، من قرينة أسمى رسول، صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان أَجْوَدَ من الريح المرسلة ، والبحر الخضم ، مع قناعة وزهد ليس لعظمهما حدّ .

وَشَدَّ من سَغَبٍ(١) أَحْشَاءَهُ(٢) وَطَوَى * تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا(٣) مُتْرَفَ(٤) الأَدَمِ(٥)

وَرَاوَدَتْهُ(٦) الجِبَالُ الشُّمُّ(٧) مِنْ ذَهَبٍ * عَنْ نَفْسِـهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ(٨)

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهـا ضَرُورَتُهُ * إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ(٩)

(٥) بِرُّهَا بِأَزْوَاجِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم :

ما كانت عليه السيدة عائشة من الحظ الوافر من مكارم الأخلاق جعلها تشمل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بعطف كبير، ومعاملة سامية؛ فكانت تحسن لقاءهن إذا قدمن، وتعودهن إذا مرضن، وتُثْنِى عليهن الثناء الجميل فى غيبتهن :

---

(١) جوع . (٢) جمع حشا وهو : ما انضمت عليه الضلوع . (٣) الكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف . (٤) ناعم من الترف وهو النعومة المفرطة . (٥) الجلد .
(٦) طلبت منه . (٧) العالية . (٨) أعرض عنها وارتفع غاية الارتفاع .
(٩) جمع عصمة : وهى الحفظ .

قالت فى السيدة سَوْدة بنت زَمْعَة : ما رأيت امرأة أحبَّ إلىَّ أن أكون فى مِسْلَاخها[1] من سَوْدَة .

وقالت فى السيدة زينب بنت جحش : لم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب، وأَتْقَى لله، وأَصْدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً[2] لنفسها فى العمل الذى تَصَدَّقُ به، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرَةً من حدَّة كانت تسرع منها الفيئة[3] .

---

(١) فى جلدها، والغرض : فى هديها وسيرتها وطريقتها . (٢) تركا للتزين . (٣) الرجوع .

الآيات القرآنية الكريمة

(١) قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ . وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ . وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * ﴾ .

[سورة النساء (١٦٣ — ١٦٥)]

المفـــــردات

أوحينا إليك : بلغناك .

الوحى : ما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى بمنام، أو إلهام ، أو كلام، أو إرسال مَلك .

الأسباط : أولاد يعقوب : جمع سِبْط .

الزَّبــور : الكتاب الذى أوحى به إلى داود .

مُبَشِّرين : مخبرين بمـا يسر الطائعين من الثواب .

مُنْذِرين : مخبرين بمـا يخيف العاصين من العقاب .

عــزيزاً : قوياً غالباً على أمره، ليس له نظير .

حــكيما : يُحكم صنعه ويتقنه .

الشـــرح

(١) اقترح أهـل الكتاب على النبي صلى الله عليـه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، فرد الله عليهم بهذه الآية الشريفة محتجا بأن شأنك فى الوحى والإرسال، كشأن سائر الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام ، فليس أمرك بدعا ، ولا رسالتك غير مسبوقة، ولم يأت أحد منهم بمـا يطلبون، قال تعـالى :

﴿ قُـلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * ﴾ (١) .

(٢) أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن رسل الله إلى عباده كثيرون : منهم من أخبر الله به نبينا صلى الله عليه وسلم، ومنهم من لم يخبره به . وفى ذلك دليل على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعا، إذ لو كانت معرفة كل واحد منهم شرطا لقص علينا كل ذلك، و إنما يجب علينا معرفة من ورد ذكرهم فى القرآن الكريم والحديث الشريف .

(٣) وفى هذه الآية دلالة على أن أصول الأديان واحدة : وهى الإيمان بالله واليوم الآخر، و إفراده تعالى بالعبادة :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأحقاف (٩) . (٢) سورة الأنبياء (٢٥) . (٣) سورة الشورى (١٣) .

واختلاف الفروع وصُوَر العبادات رحمةٌ من الله تعالى بعباده، لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها مدار التكليف؛ فإن الله تعـالى فطرهم على أنحاءٍ شتى، وأطوار متباينة، واقتضت حكمته السامية أن يتعبدهم بمـا يليق بشئونهم المتغايرة، ويتناسب هو وعقولهم وميولهم المختلفة، فتكون عباداتهم وشرائعهم، على قدر استعدادهم وطبائعهم، وذلك أنفى للحرج، وأدعى للطاعة، قال تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . سورة المائدة (٤٨)

(٤) تبين هذه الآية أن الدين الإسلامى جاء مصدِّقًا لمـا سبقه من الأديان، جامعًا لمحاسنها؛ فهو صفوة الأديان، ضم إليها ما يلائم تقدّم العقول، وسنة التدرّج فى الرقى، وما يشمل سعادة الدارين؛ لذلك اقتضت حكمة الله أن يختم به الأديان، فارتضاه لجميع الأمم فى كل مكان وزمان .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * ﴾ (٢) .

(٥) يفهم من هذه الآية أن الله تعالى قد ميز بعض الأنبياء بنوع خاص من الوحى : كالتكليم الذى امتاز به سيدنا موسى عليه السلام، وهو منتهى مراتب الوحى، ولئن كلم موسى ربه فوق جبل الطور لقد كلمه محمد صلى الله عليه وسلم فوق السموات السبع ليلة المعراج، وقد فضـل الله نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء، فمنحه فوق ما منحهم من ضروب وحى، وأنواع معجزات، وعظيم صـفات، ورضى الله عن البوصيرى إذ قال :

(١) سورة آل عمران (١٩) . (٢) سورة آل عمران (٨٥) .

فَاقَ النَّبِيين فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ * وَلَمْ يُدَانُوه فى علمٍ ولا كرمِ
وكُلُّهُم مِن رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ * غَرْفًا مِنَ البَحرِ أو رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

(٦) ذكر الله تعالى فى هذه الآية وظيفة الرسل عليهم السلام : وهى هداية الخلق إلى طريق الحق، مع تبشير الطائعين بالثواب ، و إنذار المخالفين بالعقاب . كما ذكر حكمة إرسالهم . وهى قطع كل عذر فى مخالفة ، و إسقاط كل حجة فى عصيان؛ وذلك لأن العقول البشرية قاصرة عن الاستقلال بإدراك كل ما يسعدها فى الدنيا والآخرة ، وقد يختلط على الكثير ما يسعدهم بما يشقيهم؛ فيسلكون سبيل الشقاوة ظانين أنهم فى سبيل السعادة سائرون : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا * ﴾(١) فلو ترك الناس على ذلك لضلوا المحجة، وقامت لهم الحجة ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا * ﴾(٢)، وقال عظمت حكمته : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ * ﴾(٣) والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

(٢) قال الله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا

(١) سورة الإسراء (١١) . (٢) سورة الإسراء (١٥) .
(٣) سورة طه (١٣٤) .

بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُم بِـهِ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـٰبِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ.
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِـمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّـا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ
هُم مُّحْسِنُونَ * ﴾. سورة النحل (١٢٥ — ١٢٨)

المفــــردات

سبيل ربك : الإسلام .

الحـكمة : الحجة الموضحة للحق القـاطعة للشك والشبهة، أو العلم النـافع، أو القرآن الكريم .

الموعظة الحسنة : النصيحة التى يبدو فيها الإخلاص ، ويتجلى منها حب النفع للمنصوح له ، وتمتزج فيها الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة .

جادلهم بالتى هى أحسن : ناقشهم بأحسن طرق المنـاقشة : وهى ما كانت بالرفق واللين .

الصـــبر : مقاومة النفس الهوى واحتماؤها عن اللذات القبيحة .

الشــــرح

(١) أمر الله — عز وجل — نبيه محمدًا — صلى الله عليه وسلم — أن يتخذ شـعار دعوته أمورا ثلاثة : الحجـة القاطعة ، والعظة الساطعة ، والمناقشة بالرفق واللين .

وذلك لأن الناس إزاء الدعوة ثلاث طبقات ، لكل طبقة ضرب من الدعوة يلائمـه :

فالطبقة الأولى طبقة الخاصة : وهم العقــلاء ذوو الدراية والبحث عن الحقيقة . وأمثل طريقــة لهؤلاء الحجج القوية التي تجـلى الحق؛ وتكشف القناع عن وجه الصــدق، وتقطع السبيل على البــاطل، ولا تدع مجالًا للريب والشبهة، وذلك أمر يحتاج إلى عقول كبيرة، وعلوم غزيرة ، والقــرآن فى ذلك بحر خضم ، وينبوع فياض، ومعين لا يَنْضُب، فهو ملىء بالأدلة العقليــة، والبراهين العلمية ، والأقيســة المنطقية . وليس شىء أبلغ من ذلك فى التأثير على هــذه الطبقة ؛ فإنها إذا تجلــ لهــا الحقيقة التى تتطلبها انشرحت لهــا صــدورها ، وبشت قلوبها ، وأسرعت إلى التصديق بها .

الطبقة الثانية طبقة العامة : وهى طبقــة المتوسطين : الذين لم يرْقَوْا إلى منازل العلماء العارفين، ولم ينزلوا إلى دَرْك المشاغبين والمعاندين .

وهؤلاء لسلامة ضمائرهم، ونقاء سرائرهم فى حاجة العظات البالغة، والعبر النافعة، المحلاة بالإخلاص الظاهر، والمسوقة فى أسلوب يمتزج فيه الوعد بالوعيد، والتبْشيرُ بالتحذير . فهم ليسوا فى حاجة إلى حجج قوية، وبراهينَ علميةٍ أومنطقية، بل يؤثر فيهم ما يبدو لهم من إخلاص النــاصح، وما يلوح فى ثنايا نصيحته من بشارة تشرح الصــدر ، وتُقَوِّى العزم، وتغرس الأمل، وتبعث على العمل ، وما يتراءى خلال كلامه : من وعيد يردعهم عن العصيان، ويحذرهم عاقبة الطغيان .

الطبقة الثالثة طبقة المعاندين : وهؤلاء شذاذ الطبقتين السابقتين : فيهم من العلمــاء، وفيهم من الدهماء؛ فهم فى حاجة إلى الحجة الواضحة والعظة الخالصــة

فى رفق ولين، ولابد من صبر وجلد؛ حتى تسمع حججهم ، وتناقش أدلتهم بأيسر الوجوه، وأشهر الحجج . وتلك هى المجادلة الحسنى التى تخمد شغبهم ، وتطفئُ لهيبهم وتجذب قلوبهم . وللين والرفق فى ذلك جميل الأثر، أما الغلظة والشدّة فيزيدانهم إصرارًا، ويصبان على لهبهم نارًا :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . آل عمران (١٥٩)

(٢) فى هذه الآية يخبر الله نبيه بأن الواجب عليه تبليغُ رسالته مع إقامة الحجة، وإسداء النصيحة، والتدرّج بالرفق واللين فى المجادلة، وليس واجبا عليه أن يهتدوا إلى طريق الله القويم؛ فإن ذلك ليس فى مقدوره، وقد علم الله أن منهم من لا يخضع للحجة مهما قويت ، ولا تؤثر فيه العظة مهما حسنت ، ولا يزيده الرفق واللين فى الجدال إلا تمسكا بما هو فيه من ضلال . وهؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، وخسروا الدنيا والآخرة . ومنهم من يخضع للحجة، وتؤثر فيه العظة، ويجذبه النصح ، ويأسره اللين والرفق، فيعدل عن الغى إلى الرشد، ويسلك سبيل الحق، وأولئك هم المهتدون .

(٣) يوم غزوة أحد، وإثر انتهائها ذهب صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة، فوجده ببطن الوادى قد بُقِر بطنه عن كبده، ومُثِّل به : جُدِعَ أنفه وأذناه، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى شىء لم ينظر إلى أوجع منه لقلبه ، فقال: «رحمة الله عليك! لقد كنت فعولًا للخير، وصولًا للرحم! أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل عليه قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ إلى آخر الســورة ، فصبر وكفَّر عن يمينه، وأمسك عما أراد .

والمعنى : إذا نالكم أى أذى من عدوّكم فقابلوه بالمثل ، ولا تزيدوا عليــه ، والصبر خير لكم من الانتقام .

(٤) ترشد هذه الآية إلى أن الدعوة الإسلامية التى قامت لنشر العدل، ومحق الظلم، ومحاربة العادات القبيحة — لا ينبغى لهــا أن تزايل ما قامت له ، فلا تجاوز حدود العدالة ولا تقترف قبيح العادات، حتى مع الظالمين ؛ فإن من يعيب شيئاً ، ويغض منه يجمل به أن يتنزه عنه ، وإن كان لا بد من الانتقام فلا يعدو المِثْــل ، بل الأمثل أن يقابل العدوان، بالصبر والغفران؛ فإن ذلك يجذب القلوب ، ويؤثر فى النفوس ، فتكف عن العناد، وتميل إلى الرشاد، وذلك هو المقصد السامى للدعوة .

(٥) لمــا بين سبحانه وتعالى جواز الانتقام بالمثل، وأن فى الصفح كبيرَ فضل كلف نبيَّه صلى الله عليه وســلم ذلك قائلاً : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾؛ فإن النبي صلى الله عليه وســلم لجلالة قدره، وعظم مكانته، وزيادة علمــه بالله تعالى، ووفور وثوقه به — جدير به ألا يتخــذ إلا الخطة المثلى ؛ ليكونــ خير قدوة ، وأعظم أســوة .

ولمــا كلفه الصبر أوضح له أنه لا يستطيع القيام به، إلا بمعونة ربه، وفى ذلك إشارة إلى أن طاعة الله تعالى لا تكونــ إلا بعونه وتوفيقه، نسأله تعالى العون والتوفيق إلى أقوم طريق .

(٦) لمـا أحزنَ النبي صلى الله عليـه وسلم ما حل بالمؤمنين من قتل ومُثْلة ، وما يحدث من المشركين من الطغيان ومحاربة الإيمان ، وتدبير المكايد — رفّه الله نفسه ، وطيب خاطره ، واعدًا إياه بمعونته ونصرته ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّـا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ * ﴾ .

وفى ذلك حث على اجتناب السيئات ، والقيـام بالطاعات ؛ فإن من اتقى الله فى أفعاله ، وأحسن فى أعماله ، كان الله معه فى كل أحواله ، ومن كان الله معـه ، فالتوفيق أليفُه ، والنصر حليفُه .

* * *

(٣) قال الله تعـالى :

﴿ وَلَقَـدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * ﴾ . سورة آل عمران (١٢٣ — ١٢٦)

(١) غزوة بدر :

تشير هـذه الآية الكريمة إلى الغزوة الكبرى التى وقعت ببدر (١) ، إذ خرج النبي صلى الله عليـه وسلم فى رمضان من السـنة الثانية من الهجرة يطلب عِيراً (٢) لقريش

(١) بدر : محل بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب : فى جنوبها الغربى .
(٢) العير — بكسر العين : الإبل تحمل الميرة ، ثم غلب على كل قافلة .

قادمةً من الشام بتجارة، ومعه من المسلمين ثَلاثُمائَةٍ وتسعةَ عَشَرَ رجلاً، وثلاثةُ أفراس وسبعون بعيراً، وكان أبو سفيان مع العير، فلما علم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى قريش من أخبرهم، فنهضوا ليدفعوا عن عِيرهم، وكانوا نحوَ ألفِ رجل، معهم مائةُ فرسٍ، وسَبْعُمِائَةِ بعيرٍ، ولم يكن قصدُ النبي صلى الله عليـه وسلم الغزوَ، ولم يكن بينه وبين المشركين ميعاد على ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا * ﴾(1) .

(٢) الاستشــارة :

لمـا علم صلى الله عليـه وسلم بنفرة قريش للذب عن متاجرهم استشار أصحابه فى طلب العير (إبل التجارة)، أو النفير (الجيش الذى قدم للدفاع عن التجارة) فقال : (أيها الناس، إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم : العير أو النفير)، فظهر أن بعضهم كان يريد العـير ؛ لقلة عددها وعُدَّتها ، وكثرة مالهـا ، وعدم استعداد المسلمين للقتـال .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾(2) .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله، امض لمـا أمرك الله؛ فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسراءيل لموسى :

---

(١) سورة الأنفال (٤٢) . (٢) سورة الأنفال (٧) .

﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (١) .

ولكن اذهب أنت و ربك فقاتلا ؛ إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثــك بالحق لو سرت بنــا إلى بِرْكِ الغِمَاد (٢) لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه . فقال له صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير .

ثم أراد صــلى الله عليــه وسلم أن يستوثق من الأنصار ، فقام أَحدهم قائلًا : « قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض — يا رســول الله — لمــا أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكرهُ أن نلقى عدوّنا ؛ إنا لَصُبُرٌ عند الحرب ، صُــدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ، فسُر عليــه الصلاة والسلام بقوله ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بَركة الله وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم . (وعَيَّن مصارعهم فما تَعدَّوْها) .

(٣) وسوســة الشيطان :

بعد الاستشارة ارتحل عليه الصلاة والسلام قريبا من بدر ، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى ، ونزل المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وســبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه ، وأصــبح المسلمون مُحْدِثين ،

---

(١) سورة المـائدة (٢٤) .

(٢) أقصى معمور الأرض .

وأصابهم الظمأ، وهم لا يصلون إلى المـاء . ووسوس الشيطان إلى بعضهم فقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبي الله، وأنكم أوليـاء الله، وقـد غلبكم المشركون على المـاء وأنتم عِطاش، وتُصَلُّونَ محدثين، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذْهِبَ قُوَاكم، فيتحكموا فيكم كيف شاءوا .

(٤) تثبيت الرحمن :

فأرسل الله عليهم مطرًا سال منه الوادى، فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضئوا، وسقَوْا الركاب، وملئوا الأسقية، وأطفأ المطر الغبار، ولَبَّدَ الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * ﴾ (١) .

(٥) الإمداد بالملائكة :

لمـا التقى الجمعان يوم بدر، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، وهم ألفٌ، وأصحابه ثلثمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلًا، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تُهْلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبَدْ فى الأرض . فما زال يهتف به مادًّا يديه، مستقبل القبلة حتى سـقط رداؤه عن مَنكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على مَنْكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله، كفاك مناشدتُك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل :

(١) سورة الأنفال (١١) .

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * ﴾[1].

أى معينكم بألف من الملائكة متتابعين : بعضهم فى إثر بعض . أمدهم بألف من الملائكة، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف مسوِّمين : أى معلمين أنفسهم أو خيلهم .

روى أنهم كانوا فى صور الرجال على خيل بُلْق، عليهم ثياب بيض، وعلى رءوسهم عمائم بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم .

(٦) النصـــر :

التقى الفريقان وقامت الحـرب على ساقها، وحَمِيَ الوطيس، ودارت الدائرة على قريش، وكان يومُ الجمعـة السابعَ عَشَرَ من شهر رمضانَ ، يوماً مشهوداً ، وفى تاريخ الإسلام معدوداً ، أعز الله التوحيد وزمرته؛ وأذل الشرك وخرب محلته، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدِهم، وكثرة المشركين وسوابغ حديدهم . نصر الله تعالى رسـوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وأخزى الشيطان وقبيله ، فانهزم الكفار، وولوا الأدبار، تاركين وراءهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً ، وزاد الإسلام ظهوراً، وامتلأ المسلمون إيماناً وسروراً ، ولهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين، وحزبه المتقين :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ .

أى قليل عددكم وعدتكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدِدِ والعُـدَد ، وما كان الإمداد بالملائكة لإحراز النصر، بل جعله الله بشارة وتطميناً لقلوب المؤمنين، وتسكيناً لخوفهم .

(١) سورة الأنفال (٩) .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * ﴾ .

***

(٤) قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * ﴾ . سورة النور (٥٥، ٥٦)

المفـــردات

ليستخلفنهم : ليجعلنهم خلفاء وملوكاً . ليمكننّ : ليثبتنّ وليقوينّ .

كفر : ارتد عن الإسلام أو لم يقم بشكر النعمة .

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

الشــرح

(١) كان المسلمون قبل الهجرة فى ضعف ظاهر، واضطهاد وافر، وذعر مستمر، ثم هاجروا إلى المدينـة ، فكانت حياتهم حياة جلاد وكفاح، يصبحون ويمسون مدججين فى السلاح، حتى قال قائلهم : « ما يأتى علينا يوم نأمن فيه » . فقال عليه الصــلاة والسلام : « لا تعبرون إلا يسـيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديد » ، وهــذه بشرى بالقوة والعظمة والأمن ، تأكدت بوعد الله تعالى الذى نزلت به الآية الكريمة .

(٢) قال الله تعالى يعد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن حذا حذوهم من أمته بأنه سيبدّلهم بضعفهم قوة، و بخوفهم أمَنَة، ويثبت لهم الدين الإسـلامى الذى ارتضاه لهم، و يرفع شأنه وشأنهم؛ جزاء توحيدهم، وصبرهم على اضطهادهم، واتحادهم على نصرة رسولهم، وتآزرهم على إعلاء كلمة الله .

وقد أنجز الله وعده ونصر الإسـلام على الكفر، وأورثهم الأرض ، وجعلهم خلفاء، وكما فعل ببنى إسراءيل حين أورثهم مصر والشام بعـد إهلاك الجبابرة — أظهر المسلمين على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب، وثَلُّوا عرش القياصرة، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، وصاروا ملوك العالم، وسادة الدنيـا .

(٣) فى هـذه الآية دليل على صحة نبوة سـيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ لمـا فيها من الإخبار بأمور مستقبلة وقعت كما أخبر بها .

(٤) وقد بقى المسلمون على قوتهم، وأمنتهم، وعلو مكانتهم؛ وتمام سيادتهم، وعظيم هيبتهم — ما كانوا على صدق إيمانهم، وصالح أعمالهم، واتباع سنة رسولهم، وتمسكهم بآداب دينهم . فلمـا ضعف إيمانهم، وفسدت أعمالهم، وطرحوا آداب دينهم، وحادوا عن سنة رسولهم، ولم يقتدوا بصالحى أسلافهم — تفرقت كلمتهم، واضمحلت قوتهم، وذهبت أمنتهم، وفقدت سيادتهم، وضاعت هيبتهم ، وحُرِمُوا ما ابتدأت به الآية من جميل الوعد ، وحق عليهم ما ختمت به من وعيد :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ .

ولعلك فهمت ماتنطوى عليه الآية الكريمة من أساس القوة، والغلبة، والعظمة والسيادة، وذلك الأساس هو الإيمـان الصادق، والعمل الصالح . وفق الله الأمة إلى ما فيه سعادتها .

(٥) ومما امتازت به هذه الآية أنها سُبِقَتْ بالأمر بطاعة الله ورسوله، وببيان أن هذه الطاعة سبب للهداية إلى ما فيه الفوز فى الدارين :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا . وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ * ﴾ .

ثم أتبعت بآية أخرى تدعو إلى طاعة الله : بإقامة الصـلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول فى كل ما يأمر به رجاء رحمة الله تعالى؛ فإن طاعته تستجلبُ رحمته :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * ﴾ .

فطاعة الله ورسوله سبب فى الهداية، والرحمة، والقوة، والأمنة، والسيادة، والعظمة، وفى ذلك سعادة الدنيا والآخرة .

وإن تعجب فعجب لقوم هـذا دينهم، وتلك شريعتهم، يهملونها ويتهافتون على العقائد الفـاسدة، والمظاهر الزائفـة، حتى اشتبهت عليهم الرذيلة بالفضيلة، والفضيلة بالرذيلة، وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

*
* *

(٥) قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ﴾ .

سورة الاسراء (٣٢ ــــ ٣٨)

المفـــــردات

لوليـه : لمن يتولى أمره بعد وفاته وهو الوارث .

سلطاناً : تسلطًا وسَيْطرة : تحكّمًا على القـاتل .

فلا يسرف : لايتجاوز الحدّ . أشدّه : تمام قوته العقلية والجسمية .

العهد : أوامر الله تعالى ونواهيه ، و يشمل عهد الناس على ما ليس بممنوع شرعا .

القسطاس : الميزان . المستقيم : المعتدل . تأويلا : عاقبة .

لا تقف : لا تتبع .

مرحا : اختيالا و إعجاباً بالنفس . تخرق الأرض : تثقبها إلى الجهة الأخرى

لن تبلغ الجبال طولا : لن تساويها فى الطول . سيّئُه : قبيحه المنهى عنه .

الشـــــرح

احتوت هذه الآيات الكريمة عدّة أمور : بعضها منهى عنه ، و بعضها مأمور به :

(١) جريمـــة القتـــل :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * ﴾ .

إن جريمــة إزهاق الروح جريمة وحشية، تدل على أن مقترفها تجرد من خلال الخير، بل تجرد من صفات الإنسانية، وانحط إلى درجة الحيوانيــة، وإذا فشت تلك الفعلة فى قوم فارقتهم الرحمــة، وشملتهم القسوة، وفقدوا الطمأنينة، وهجرتهم الثقــة، وانقطعت بينهم العــلائق، واضطربت أحوالهم، وأسرع إليهم الخــراب والفناء؛ فان مرتكب هذا الوزر يهتك حرمة الدماء، ويسن للنــاس سنة شنعاء، ويجرئهم على جريمة نكراء :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(١) .

فكان خليقًا بمقت الله وشديد عقابه، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

ولافرق بين أن يكون المؤمن حرًّا أو عبدًا، رجلًا أو امرأة، وحكم الذمى حكم المؤمن فى حرمة القتل ووجوب القصاص .

وأما من أحيا نفسًا بعفو، أو منع قتل، أو إنقاذ من هلكة — فقد برهن على العواطف النبيلة، وتأثل الفضيلة، واستحق رضا ربه، وجزيل ثوابه؛ لأنه سن سنة جميلة، وكان قدوة فى المرحمة، وأسدى إلى الإنسانية أعظم مكرمة، وسدّ باب الشر سدًّا منيعًا : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٣) .

(١) سورة المائدة (٣٢) . (٢) سورة النساء (٩٣) .
(٣) سورة المائدة (٣٢) .

والحق الذى يبيح إراقة الدماء : كُفْرٌ بعد إيمان، أو زِنًى بعد إحصان، أو قتلُ مؤمن معصوم عمداً. ومن قُتل بغير هذا فهو مظلوم، لقريبه الوارث الحقُّ فى المطالبة بدمه من غير تجاوز للحد المشروع فى ذلك؛ فلا يمثل بالقاتل، ولا يقتل غيره، ولا يقتل اثنين فى واحد؛ فإن الله تعالى قد نصره؛ حيث أوجب له القصاص، وأمر الحاكم بمعونته، وهو الذى يتولى القيام به، وحسبه ذلك؛ أما الإسراف فإنه عادة جاهلية ممقوتة : تجر إلى توالى إراقة الدماء، وتبطل حكمة القصاص.

(٢) كفالة اليتيم :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾.

رعاية اليتيم، والقيام على أموره عمل تدعو إليه المروءة، وتستوجبه الشفقة والرحمة، ويفرضه الدين، قال تعالى :

﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾. الآية :

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » [وأشار بالسبابة والوسطى وفَرَّجَ بينهما كناية عن قرب منزلته من النبى صلى الله وسلم فى الآخرة].

ورعاية اليتيم تقضى المحافظة على نفسه وماله :

فالمحافظة على نفسه : تربيته تربية صحيحة حتى ينمو عقله وجسمه، واجتناب إيذائه حسًّا ومعنى؛ فإن فى سوء معاملته بعدًا من الخلق الكريم، وخروجًا عن الدين القويم :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ (١) ٱلْيَتِيمَ (٢) * ﴾.

(١) يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى. (٢) أول سورة الماعون.

والمحافظة على أمواله : عدم مسها والدنو منها إلا بأحسن الطـرق وأنفعها ؛ فلا يعطيها لليتيم قبل أن يبلغ رشده، بل يحفظها عنده، وينفق عليه منها :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * ﴾ (١) .

ويشير قوله تعالى : ﴿ وارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ إلى أن الولى يجب عليه أن ينمى مال اليتيم بتجارة أو زراعة أو غيرهما من الوجوه المشروعة ؛ لأنها لا تبقى موردًا للرزق والكسوة إلا إذا استغلت وثمرت .

و يحرم على الولى أن يتناول من مال اليتيم شيئاً لنفسه إلا إذا كان فقيراً فيأكل بالمعروف : بلا إسراف ولا ادّخار لنفسه، ولا وقاية لماله . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) .

وقد حذر الله تعالى الأوصياء استعمال القسوة مع اليتامى، أو إيذاءهم فى أموالهم، مُذَكِّرًا إياهم بأولادهم الذين يتركونهم بعد وفاتهم ؛ حتى يعملوا معهم ما يحبون أن يصنع بأولادهم من بعدهم : من الشفقة، والرفق، وحسن الأدب، وصيانة الأموال والعمل على إنمائها . قال تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * ﴾ (٣) .

(١) سورة النساء (٥) . (٢) سورة النساء (٦) . (٣) سورة النساء (٩) .

وروى عن أبى بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الله قوما من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً »، فقيل من هم؟ فقال : ألم تر أن الله يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا * ﴾ (١) .

وإذا آنس الوصى أن اليتيم قد بلغ رشده، وظهر له تمام نموه العقلى والجسمى: بصلاح دينه وأحواله، والقـدرة على حسن التصرف فى أمواله — دفعها إليـه، وأشهد عليه؛ نفيا للتهمة، وبعدًا من الخصومة .

(٣) الوفاء بالعهد : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * ﴾ .

هو غرس الأمانة، وثمرة الصـدق والإخلاص، ومظهر الشهامة والمروءة، وصفة النفوس الشريفة، وعنوان الهمم العالية، وباعث الثقة والاحترام، ودعامة حسن المعاملة، وأساس رقى الأمم، وسبيل سعادتها .

لذلك يفرض عليك الشرف أن تفكر مليًّا، وتتروى طويلًا قبل أن تعقد وعدًا، أو تلتزم عهدًا؛ فإنّ من تعِدُ يرتب عليه أموره، وينظم أعماله وأوقاته، فخلف الوعد إفساد لهـذا الترتيب قد ينشأ عنـه فوات مصالحَ ذاتِ قيمة، أو وقوعُ خسارة جسيمة، أو ضياع فرصـة لا يمكن تداركها؛ ولذلك تشعر من نفسك بامتعاض، وفى صدرك بانقباض، حينما يخلف وعدَك صـديقُك أو عميلُك؛ إذ ترى فى ذلك تعطيلًا لأعمالك، وإهدارًا لأوقاتك، بل ازدراء لذاتك .

ولا شك أن خلف الوعد غدر يفسد النظام، ويُذْهب الهيبة والاحترام، ويضيع الثقة بين الأقوام، ويفصم عرا التعاون والالتئام، ويعجل الله به الانتقام .

(١) سورة النساء (١٠) .

لذلك أمر الله بالوفاء بالعهد : قال تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * ﴾ .

يُسْأل صاحبه يوم القيامة؛ فللموفى الثواب، وعلى المخلف العقاب، وقال تعالى :
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ (١) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ * ﴾ (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » وزاد فى رواية أخرى : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » .

وقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثلًا كاملًا فى الوفاء بالوعد؛ فقد روى عن عبد الله بن أبى الحمساء — رضى الله عنه — أنه قال :

« بَايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ، فَنَسِيتُ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فقال : يَافَتَى، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ ، أنا ها هنا منذ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » .

فالنبى صلى الله عليه وسلم انتظر ثلاث ليال، لا لبقية الثمن، بل للوفاء بالوعد الذى كان أحرص عليه من كل شىء .

وقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة دروسًا عملية ، ومظاهر جلية، لهذه الخلة السامية، ولجميع أخواتها من صفات النبل، وقد ربّى أصحابه على ذلك فكانوا نموذجا صالحا، وقدوة طيبة :

---

(١) سورة النحل (٩١) . (٢) أوّل المائدة .

روى عن جابر — رضى الله عنه — قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا، فلم يجئ مال البحرين حتى قُبِض النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه فنادى : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عِدَةٌ أو دَيْنٌ فليأتنا ، فأتيته وقلت له : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لى كذا وكذا، فحثى لى حثية ، فعددتها فإذا هى خمسمائة، فقال لى : خذ مثليها .

ولما أُتِىَ عمرُ بنُ الخطاب بِالهرمزان أسيرًا دعاه إلى الإسلام، فأبى، فأمر بقتله ، فلما عرض عليه السيف قال : لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلى على الظمأ ، فأمر له بها، فلما صار الإناء فى يده قال : أنا آمن حتى أشرب؟ قال : نعم، فألقى الإناء من يده، وقال: يا أمير المؤمنين، الوفاء نور أبلج، قال : لك التوقف حتى أنظر فى أمرك، فلما رفع عنه السيف قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، فقال له عمر : ويحك! أسلمت خير إسلام فما أخرك؟ قال : خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال : إن إسلامى إنما كان جزعاً من الموت ، فقال عمر : إن لفارس حُلوماً، بها استحقت ما كانت فيه من الملك .

وسئل الإمام مالك رضى الله عنه عن الإشارة بالأمان : أهى بمنزلة الكلام ؟ فقال: نعم، إنى أرى أن يُتَقَدَّمَ إلى الجيوش ألا يقتلوا أحدًا أشاروا إليه بالأمان؛ لأن الإشارة عندى بمنزلة الكلام، وإنه بلغنى أن عبد الله بن عباس قال : ما خَتَرَ قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدوّ .

(٤) وفاء الكيل والميزان : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

وفاء الكيل والميزان خيرٌ عظيم : مصدره الصدق والأمانة، ومبعثه خوف الله تعالى ومراقبته ، وثمرته حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة : ففى الدنيا طيب الثناء، وكثرة الحرفاء ، وسعة الثراء ، وحسن الاقتداء، فيعم الرخاء ، ويختفى الشقاء . وفى الآخرة حسن الجزاء، والنعيم الذى لا يعتريه فناء؛ فصاحبه يحشر مع النبيين والصدّيقين والشهداء .

وأما التطفيف فشر وبىء، وخلق جدّ ردىء، وأكل لأموال الناس بالباطل، فهو مظهر الخيانة وعدم مراقبة الله ، وغفلةٌ عن يوم الجزاء العظيم : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وتفشى التطفيف فراق للأمانة ، وهجر للصدق ، وحرمان من الثقة ، واستحقاق لمقت الله، واستعجال لنقمته، قال تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * ﴾ (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم لأصحاب المكيال والميزان :

« إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتْ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلَكُمْ » .

(١) أوّل سورة المطففين .

فهو يحذرهم التطفيف وإلّا حل بهم من العقاب الشـديد ما حل بسابقيهم ؛ ولذلك كان السلف الصالح يخشى الإقامـة بين المطففين، ويوصى بهجر بلادهم : قال سـعيد بن المسيّب رضى اللهٰ عنه : « إذا جئتَ أرضاً يوفون المكيال والميزان فأطل المقام بها، وإذا جئت أرضا ينقصون المكيال والميزان فأقلل المقام بها » .

(٥) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * ﴾ .

(أ) لا تتبع شيئًا لا علم لك به، سواء أكان مسموعًا أم مبصرًا أم معتقدًا ؛ فلا تخبر بأنك سمعت وأنت لم تسمع، أو أبصرت وأنت لم تبصر؛ فإن فى ذلك كذباً صريحًا .

قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذبَ؛ فإن الكذبَ يهْدى إلى الفجور، وإن الفجورَ يهْـدى إلى النـار، ولا يزالُ الرجلُ يَكْذِبُ ويتحرى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عند الله كذابًا » .

وقال : « كَبُرت خيانةً أن تُحَدِّثَ أخاكَ حديثًا هُو لَكَ بِه مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ »، وقال أيضًا : « إِنَّ أَفْرَى الْفِرَى أن يُرِىَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا » .

ومعناه أكذب الكذب وأقبحه أن يقول : رأيت « فيما لم يره » .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ[١] * ﴾ .

(١) سورة النحل (١٠٥) .

وقــد يكونُ فى الكذب إفسادٌ بين النــاس؛ فيكونُ نميمة ووقيعة، وفى ذلك فَصْمٌ لعُرا الاتحاد، وقطعٌ للروابط الاجتماعية، قال صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل الجنة نمام» . وقال تعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ (١) مَّهِينٍ (٢) * هَمَّازٍ (٣) مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * ﴾ (٤) .

وإن كان فى ذلك الكذب ذِكْرُك أخاك بما يكره — فهو بهتان : أى باطل، وفيه غرس للأحقاد والضغائن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن من أكبر الكبائر استطالةَ المرء فى عِرْضِ رجل مسلم بغير حق » .

وقــد يكون الكذب أمام الحاكم فهــو شهادة زور : تفضى إلى الحكم على البرىء، وإفلات المجـرم من القصاص، وضياع الحقوق، وتضليــل الحاكم، وتشجيع الظالم، وتكثير الجرائم، قال الله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * ﴾ (٥) .

وقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنــا : بلى يا رســول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس) فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنــا : ليته سكت .

وكما لا يليق بشرفك أن تقول سمعت وأنت لم تسمع ، أو أبصرت وأنت لم تبصر كذلك لا يليق بك — وقد وهب الله لك العقل — أن تُكَوِّن لك عقيدة فى شىء ما دون دليل ساطع، وعلم قاطع؛ فان الظن لا يغنى من الحق شيئاً، وبعض

(١) كثير الحلف . (٢) حقــير . (٣) عيــاب طعان مغتاب .
(٤) سورة القلم (١٠ — ١٢) . (٥) سورة الحج (٣٠) .

الظن إثم، والدين الذى جاء لإنهاض العقل من حضيض الجمود والتقليد، لا يقبل منه عقيدة إلا بالبرهان السديد .

(ب) يصح أن يراد بقوله تعالى : (ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْم) لا تتبع مالا يعنيك؛ فيحرم على المرء أن يتتبع بسمعه و بصره عورات النـاس ؛ فان ذلك تجسس نهى الله تعالى عنه بقوله : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1] . وصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته؛ ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله »، وقال : «إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم»؛ لأن مجاهرته بمـا يسمع منهم ربمـا تؤدّيهم إلى المجاهرة بالمعاصى، والاستزادة منها .

كذلك لا يحل للمرء أن يُصْغِى إلى مغتاب، فإن فعل كان شريكا له فى إثم الغيبة؛ فإن المستمع شريك القائل، قال تعالى فى وصف عباده الذين يحبهم :

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[2] .

وقال فى وصف المؤمنين المفلحين :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[3] .

ويحرم عليه أيضًا أن ينظر إلى أجنبية، كما يحرم على المرأة أن تنظر إلى أجنبي لغير حاجة شرعية، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، وقال تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ . سورة النور (٣٠ و ٣١)

(١) سورة الحجرات (١٢) . (٢) سورة الفرقان (٧٢) . (٣) سورة المؤمنون (٣) .

ويحرم التفكير المصحوب بالعزيمة المؤكدة فيما لا يحل لك التفكير فيه ؛ كتفكيرك في ضرر نفسك أو غيرك أو وطنك أو دينك ، أو في معصية من معاصي ربك .

والتفكير الذي ليس مصحوبًا بالعزيمة المؤكدة على تنفيذ الفكرة ليس بحرام ، بل هو حديث النفس المعفو عنه .

فالسمع والبصر والقلب من نعم الله الجليلة التي يجب استعمالها فيما خلقت له ، ولا ينبغي أن تسخر في معاصي الله المذكورة ؛ فإنها جرائم هادمة لكيان الاجتماع ، مؤرثة للأحقاد والضغائن ، فاصمة لعُرا الاتحاد والتعاون ، جالبة لسخط الله تعالى وعقابه .

وسيسأل كل إنسان يوم القيامة عن سمعه فيما استخدمه ، وعن بصره فيما أجاله ، وعن فؤاده فيما استعمله .

(٦) النهي عن الكبر : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * ﴾ .

قد تَخْدَعُ بعضَ الناس نفسُه ، فتوهمه أنه على مزايا فوق مستوى غيره ، وأن له من الفضائل ما جعله فريد عصره ، ومن المحاسن ما صيره وحيد دهره ؛ فهو فيما وُهِبَ من خلال ، لم يُنْسَج له على منوال ، ولم تَسْمَح المقادير له بمثال ، فيشمخ بأنفه كأنما يطاول الجبال ، ويرفع رأسه إلى السماء كأنه يطلبها ، ويدق الأرض بقدميه كأنه يثقبها ؛ غرضه بذلك كله أن يشار إليه بالبنان ، بأنه أعظم إنسان .

ويرشدنا الله في هذه الآية الكريمة إلى أمرين مُرَّين يتجرع المتكبر مرارتهما :

(ا) طلب المنزلة عند الناس بتعاظمه عليهم، وبذلك قد طلب ما لا يناله ولا يمكنه دركه؛ لأنه أخطأ الوسيلة، وحرم التواضع وهو خير فضيلة . ومَثَلُه فى خيبة الامال مَثَلُ من يحاولُ أن يثقب الأرض، أو يبارى بطوله الجبال .

(ب) إن تعاظمه على الناس ينفرهم منـه، ويحقدهم عليـه، ويحقره فى نظرهم، فيهزءون به، ويسخرون منه، كما هزأ به الله تعالى فى هذه الآية بأسلوب بديع فى السخرية ؛ فتعاظُمه أثمر له المهانة عند الله والنـاس ، فأمله معكوس ، وطالعه منحوس، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ (١) كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * (٢) ﴾ .

وقال تعـالى : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * (٣) ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنـة من كان فى قلبه ذرّة من كبر ، فقال رجل، يارسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحَـقِّ، وغَمْطُ الناس » .

بطر الحق : دفعه وردّه على قائله ، وغمط النـاس : احتقارهم .

(٧) ﴿ كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ :

---

(١) ولا تمله كبرا . (٢) سورة لقمان (١٨) .

(٣) سورة القصص (٨٣) .

بعض الخصال المذكورة فى هذه الآيات حسن مأمور به فهو مرضى عند الله تعالى ، ويكون فاعله مرضيا عنـه ، وبعضها قبيح منهى عنه والله تعالى يبغضه ، ويبغض من يفعله ، ويعاقبه على ذلك . وفقنا الله لمـا يرضيه .

* * *

(٦) قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * ﴾ .

سورة الواقعة (٦٠ — ٧٤)

المفـــــردات

قدّرنا بينكم الموت : قسمناه عليكم قسمة الأرزاق .

بمسبوقين : بمغلوبين . أمثالكم : ذواتكم ، أو صفاتكم .

ننشئكم : نخلقكم . تزرعونه : تنبتونه وتنمونه .

حطاما : هشيما : متكسرا . فظلتم : فصرتم .

تفكهون : تعجبون ، تندمون .

مغرمون : (مصابون بغرامة ما أنفقناه أى بخسارته .
(أو معذبون مهلكون بهلاك رزقنا، أو بالمعاصى .

محرومون : ممنوعون رزقنا بسوء حظنا .

المزن : السحاب : واحدته مُزنة . أُجاجًا : مرًا شديد الملوحة لا يمكن شربه .

تُورون : توقدون وتُخْرِجُون من الشجر الأخضر .

تـذكرة : يُتَذَكَّر بها نار جهنم . متاعًا : منفعة .

للمقـوين : (المقوى : المسافر، والفقير، والغنى .
(ولذلك صح أن يراد بالمقوين : الناس أجمعون .

فسبح باسم ربك : فنزه ربك عما لا يليق به .

الشـــــرح

(١) بهذه الآيات الكريمة يردّ الله تعالى على من ينكرون البعث بأنه خلقنا، وجعل لحياة كل إنسان غاية لا نتعدّاها، وساعة معينة لا نتجاوزها .

كما أبان أنه لا يعجزه أحد، ولا يغلبه غالب، ولا يحول حائل بينه وبين أن يخلقنا خلقًا آخر لا نعلمه : فيبدّل ذواتنا، أو يغير صفاتنا .

وقد برهن على ذلك — من أنفسنا، ومما لابد منه لحياتنا — بما يقطع الحجة، وينير المحجة .

البرهان الأوّل :

مما لا مراء فيــه أن الله تعالى خَلَقَنَا أولَ خَلْق، ومن قدر على فعل شىء كان على إعادته أقدر؛ إذ من الثابت عند ذوى العقول أن الإعادة أهون من البُـداءة، غير أنه سبحانه تستوى عنده فى السهولة البداءةُ والإعادةُ؛ لعظيم قوته، وتمام قدرته .

يشير إلى ذلك البرهانِ قولُه تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * ﴾ .

البرهان الثـانى :

نحن نحرث الأرض، ونبذر الحب، ونرجو الثمار من الرب، فهو الذى يتولى بفضله وعنايته وقــدرته إنباتَه وتميتَه ، حتى يؤتى أكلَه فى حينه ، ولو شاء لجعله متفتتًا متكسرًا، بعد أن كان زاهرًا ناضرًا، فيصير أمرنا حينئــذ بين تعجب من سوء حالته بعد غضارته، ونَدَمٍ على ضياع ما بذل فيه من جهد ونفقة، وأسف على ما ارتكبناه من آثام اقتضت هذا الانتقام .

ويتوزع حديثنا بين قولنا : إننا مصابون بغرامة نفقاتنا، وقولنا: إنا معذبون ومهلكون، لضياع أرزاقنا ، وكثرة ذنوبنا، وقولنا : إنا ممنوعون من الرزق بسوء حظنا وعدم بختنا .

وذلك البرهانُ قولُه تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * ﴾ .

البرهان الثـالث :

المـاء الذى نشربه عذبًا فـراتًا ، كان بخارًا صـعد بالحرارة من بحار : ماؤها أجاج ، والله وحده الذى يستخلص العذب من الملح ، ويرفع الأول إلى طبقات الجو العاليـة، وهنالك يتكاثف ويتراكم، فيُكَوِّن المزنَ الذى يهطل منـه المطر ،

فيروينا وحيواننا ونباتنا . ولوشاء الله نصعد من البحار أجاجها فلا نستسيغه، ولا نقوى على شربه؛ لأنه يؤجج الغلة، ويُلهِبُ الظمأ .

أفلا يدل ذلك على تمام قدرته، وجميل عنايته، وعظيم رحمته ؟ وهلا يجب أن نقابل تلك المنة السامية بشكر جزيل، وثناء جميل؛ وطاعة تامة لذلك الرب الجليل !

تقرأ ذلك البرهان فى قوله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * ﴾ .

البرهان الرابع :

النار من ألزم الأشياء لنا، وألصقها بنا فى حياتنا؛ فلا يستطيع إنسان أن يستغنى عنها : كبيرًا كان أو صغيراً ، جليلًا أو حقيراً، غنياً أو فقيراً، حاضراً أو مسافراً .

ولم يُنْبِت الشجرَ الذى تخرج منه النار إلا اللهُ جلت قدرته ، وقد جعلها لنا فى الدنيا مُذَكِّرَةً بنار الآخرة؛ حتى لا نميل عن القصد، ولا نقصر فى أداء فرض، كما سَخَّرها للناس يستدفئون بها ويستضيئون، ولطعامهم يُنْضِجُون .

ومن تدبر هذه البراهين تحقق تمام قدرة الله على البعث والنشور، وتأكد ما لله من منن عظيمة على خلقه : يجب أن تقابل بتعظيمه، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بعظمته .

تقرأ ذلك فى قوله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * ﴾ .

*
* *

(٧) قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ . مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * ﴾ . سورة المائدة (٦)

المفــــردات

إذا قمتم إلى الصلاة : إذا أردتم القيام إليها .

المــرافق : جمع مِرْفَق ، وهو مَوْصِل الذراع فى العضد .

الكعبين : هما العظمان البارزان فى جانبى كل رِجْل ، عند مفصل الساق والقدم .

فاطّهّروا : فاغتسلوا .

الغــائط : المنخفض الواســع من الأرض ، وكانوا يقضون حاجتهم فيــه ، ثم أطلق على ما يخــرج من الفضلات فمعنى : « جاء أحد منــكم من الغــائط » : قضى حاجته .

صعيدًا طيبًا : ترابًا طاهرًا . حَرَج : ضيق .

الشـــرح

المُصَلِّى واقف بين يدى الله تعالى ومناجٍ له ، فيلزمه أن يكون طاهرًا ، ظاهرًا وباطنًا ؛ لذلك يُفْرض على من يريد القيام إلى الصــلاة أن يتوضأ : يغسل وجهه

ويديه إلى مرفقيه ، ويمسح رأســه ، أو بعضــه ، ويغســل رجليه إلى كعبيه .

ولا بد أن[1] تسبق النيةُ هــذه الأعمــالَ ، وعُلِمَ فرضُ النية من الحــديث : (إنما الأعمال بالنيات) كما عُلِمَ من الحديث أيضًا سُنَنُ الوضوء ومستحباتُه ونواقضُه.

وَيُكْتَفَى بالوضوء إذا لم يكن المرء مُحْدِثا حدثا أكبر، وإلا وجب عليه إذا أراد الصلاة أن يغسل جسمه كله، ولا يكفى الوضوءُ حينئذ .

ثم بين الله تعالى فى الآية أن الإنسان إذا كان مريضًا ، وخشى باستعمال المــاء الموتَ أو زيادةَ المرض ، أو كان مسافرًا ، أو قضى حاجته ، أو لمس النساء ، ولم يجد ماء يتوضأ به — فإنه يتيمم بتراب طاهر : يمسح وجهه ويديه بالكيفية التى عرفتها سابقا .

ففى هذه الآية الكريمة : بيان أنواع الطهارة الثلاثة : الوضوء، والغسل، والتيمم، وقد أَوضح الله لنــا فيها أَنه ما كلفنا ذلك إرادةَ التشديد والتضييق علينا ، بل إرادة تطهيرنا من الأدناس الظاهرة والباطنة : فالظاهرة هى الأوساخ العالقة بالجسم ، والباطنة هى الذنوب ؛ فقد ورد فى الحديث الشريف أن الوضــوءَ يُكَفِّرُ الله به الذنوب .

وبذلك يكون الله تعالى قد أَتم نعمته علينا بالطهارتين : الظاهرة والبــاطنة ، وبالترخيص لنــا بالتيمم حين فقد المــاء، أو عدم القدرة على استعماله ، وتلك نعمة عظيمة تستحق أَن نشكرها لله بطاعته فيما أَمرنا به ونهانا عنه .

(١) قصــد الوضــوء .

الأحاديث النبوية الشريفة

(١) قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بُنِيَ الإِسْلَام عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجَّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ[1] » .

لكل بناء دعائم لايقوم إلا عليها ، وآساس لايوجد إلا بها ، وفى هذا الحديث الشريف شَبَّهَ النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام بالبناء ، وجعل أساسه الشهادتين ، وأداءَ الصلاة ، وإعطاءَ الزكاة ، وحج البيت الحرام ، وصومَ شهر رمضان ، وكما لا يوجد البناء دون أساس لا يوجد الإسلام الكامل دون هذه الأمور الخمسة .

والغرض بيان شعائر الإسلام العظمى ، ومظاهره الكبرى ، التى يقوم عليها ، ولا يتم وجوده إلا بها ، ومزايا كل من هذه الدعائم الخمس يحتاج إلى إطالة ، لاتحملها هذه العجالة ، وقد مر بك بعضها فى علاقة الإيمان بالسعادة ، فارجع إليها .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ . قيل : يا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا الْقَاتِلُ ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُول؟ قال : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ[2] » .

المفردات

هذا القاتل : أى استحقاق القاتل للنار ظاهر ؛ لارتكابه جريمة القتل .

فما بال المقتول : ما حاله حتى استحق أن يكون فى النار ؟

حريصا : شديد الرغبة والعزم على قتل صاحبه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . (٢) رواه البخارى .

الشـــــرح

رابطة الإيمان كرابطة الأهل والبنيان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا»، بل مثّل النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم بالجسد؛ إذا مرض منه عضو تألم له سائر الجسد، فاعتراه الأرق وانتابته الحمى .

فترى من هــذا أن رابطة الإيمان قــوية جدًّا، لا يُقْــدِمُ على قطعها (بإيذاء المسلمين أو أحدهم) إلا مجرم أثيم، مستحق لأشدّ أنواع العقاب .

فالمسلمان المتقاتلان يفصمان العروة الإســلامية، ويقطعان الصلة الدينيــة، ويُحِلَّان الحقد والجفاء، محل المحبة والصفاء، ويُفَرِّقان كلمة المسلمين، ويُضْعفان شأن الإسلام؛ لذلك استحقا عقاب النار؛ أما القــاتل فلأنه ارتكب تلك الجريمة الشنيعة، وأما القتيل فقد كان ذا رغبة شديدة، وعزيمة أكيدة على قتل صاحبه .

غير أنهما لا يُخَلَّدان فى النار إلا إذا استحلا ذلك التقاتل . وإذا كان أحدهما يدافع عن نفسه أو عرضه أو ماله أو وطنه فلا إثم عليه، والبــاغى هو الآثم .

* * *

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَامَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَاعِلًا، فَثُلُثٌ لِطَعَامِــهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[2] .

---

(١) سورة الحجرات (١٠) . (٢) رواه الترمذى .

المفـــــردات

بِحَسْب : كافى . يُقِمْنَ : يحفظن . صُلْبَهُ : ظَهره، والمراد جميع الجسم .

لا محالة : لابد .

الشـــــرح

المعــدة بيت الداء، والبطنة تأفن[1] الفطنة ؛ فكثرة الطعام، تذهب النشاط ، وتجلب السِّقام، وتضر العقول : تكدر صفاءها ، وتذهب ذكاءها .

لذلك جعل النبى صــلى الله عليه وســلم امتلاء البطن خطراً على الجسم والعقل يجب اتقاؤه ، وشراً كبيراً يجدر بالعــاقل اجتنابه، والاكتفاء باليسير الذى يحفــظ الحياة، ويقوى الجسم، ويَرُدُّ إليــه ما يذيبه الكد، ويذهبــه الإجهاد، فإن دفعت المرءَ رغبةٌ شديدة إلى الزيادة على القدر الضرورى فليكن ذلك بحذر وحكمة؛ بحيث لا يتجاوز الطعام ثلث المعدة، ويبقى الثلثان : أحدهما للشراب، والآخر للنفَس .

فالدين يدعو إلى الاعتدال فى الطعام ؛ محافظة على الصحة الجسمية والعقلية ؛ قال تعالى فى سورة الأعراف (٣١) :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

* * *

(٤) قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا »[2] .

---

(١) تذهب . (٢) رواه الامام مالك والبخارى ومسلم والترمذى .

المفـــردات

الطاعون : قُروح تخرج فى الجسد، مع ورم، وألم شديد، وخفقان فى القلب وقىء، و يراد بالطاعون هنا كل مرض عام معدٍ .

الشـــرح

إذا انتشر بإحدى الجهات مرض معد وجب على الخارجين عنها ألا يدخلوها ؛ حتى لا يعرضوا أنفسهم للتهلكة بانتقال جراثيم الوباء إليهم ، كما يجب على أهل الجهة الموبوءة ألا يخرجوا؛ حتى لا يكونوا سبباً فى تفشى الوباء بجهات أخرى .

وهذه حيطة صحية عظيمة ، وتدبير جليل الشأن ، تقوم به الآن الحكومات الراقية حينما تحل الأمراض ببعض جهاتها ، حرصًا على الصحة العامة ، و يسمى بالحجر الصحى .

ففى هـذا الحديث أمر بالاحتياط والحزم ، والاحتراز من المكاره ، ومجانبة أسباب الهلاك ، كما أن فيه تسليماً لقضاء الله وقدره عند حلول الآفات .

***

(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ؛ فَسَدِّدوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ » (1) .

المفـــردات

يسر : سهل ، يشادّ الدين : يغالبه : يكلف نفسه من العبادة فيه فوق طاقته .

سدّدوا وقاربوا : اقتصدوا واعتدلوا فى الأمور كلها ، واتركوا الغلو فيها والتقصير .

الغَدوة : سير أوّل النهار ، والروحة : سير آخر النهار ، والدُّلجة : سير آخر الليل .

---

(1) رواه البخارى .

الشـــــرح

الدين الإســلامى سهل متين، ينبغى العمل به فى رفق وهوادة ؛ فــلا تكلف نفسك فوق طاقتها ، وإلا وقعت فى المَلَل والعِلَل؛ فتنقطع عن العمل ، دون نيل الأمل، ويكون مَثَلُك مَثَلَ سَفْرٍ[1] أجهد أحدُهم مطيته؛ ليصل إلى الغاية قبل إخوانه ، فمـا كاد يفارقهم حتى ماتت مطيته من الجهد دون الغاية ، فلا طَوَى مسافة طويلة ، ولا وَقَى دابته من العطب .

قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » .

والحكمة : التوسط فى الأمور كلها ، وترك الغلو والتقصير؛ فإن ذلك أصون للنفس من الإجهاد، وأقرب إلى نيل المراد؛ وقليــل دائم خير من كثير منقطع ، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلّ .

فجدير بالعاقل ألا يجانب الاعتدال فى طاعته، ويستعين عليها بأوقات النشاط، وخلو القلب من شئون العيش؛ حتى لا يسأم ولا يسقَم؛ بل يستلذ العبادة، ويبلغ مراده . مَثَله فى ذلك مَثَلُ المسافر الحاذق يسير فى أوقات النشاط : أوّل النهار، وآخره، وآخر الليل، ويستريح هو ودابته فى غيرها؛ فيصل إلى غايته، دون عناء.

***

(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّٰهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ : إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَأَنَا النَّـذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِــهِ فَأَدْلَجُوا ، وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْ

(١) مسافرين .

طائِفةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبحُوا مكَانَهُـمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِـهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ [١] » .

المفـــــردات

النذير العريان : من يُبعث ليتعرف أخبار العدوّ ، يكون على مكان عال، فإذا رأى العدوّ قـد أقبل نزع ثوبه، وألاح به؛ لينذر قومه، ويبقى عريانا؛ لأنه أبين للعين، وأغرب منظراً، وأشدّ تأثيراً، وأبلغ إنذاراً .

فالنجاءَ : فانجوا بأنفسكم سريعا، وهو مصـدر منصوب بفعل محذوف، وقد تكرر في بعض الروايات .

اجتاحهم : أهلكهم جميعا .

الشـــــرح

في هذا الحديث يشبه النبي صلى الله عليه وسـلم نفسه في رسالته إلى النـاس بالنذير العريان؛ تَطَلَّعَ طِلْعَ [٢] العدوّ ، فبذل وسعه في إخبار قومه بقدومه، فمن صدقه وأسرى [٣] نجا من الهلكة، ومن كذبه و بات مكانه، صبحه العدوّ فأباده .

كذلك النبي صلى الله عليه وسـلم أُرسِل نذيراً بين يدى عذاب شـديد ، فبذل همة مشكورة، حتى بلغ رسالته موفورة، فمن بادر إلى طاعتـه ، والتمسك بسنته ، سعد في دنياه وآخرته، ومن عصاه، خسر دنياه وأخراه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم . (٢) خبر . (٣) سار ليلا .

*
* *

(٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله تعالى، وأن يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » [1].

حلاوة الإيمان : الشعور بلذة الطاعة، وعذوبة المشقةِ والأذى فى سبيل الله :

(١) ويتجلى ذلك فى حب الله ورسوله أكثر من غيرهما ؛ بملازمة المرء طاعتهما، وإيثاره كل ما يرضيهما، مهما ناله من مشاق، أو حل به من آلام .

(٢) وألا يحب أحدًا إلا لله تعالى ؛ بأن يحبه لتمسكه بالآداب الدينية ، وتجمله بالأخلاق المرضية .

(٣) وأن يستوىَ عنده الوقوعُ فى الكفر والوقوعُ فى النار .

وهذا الحديث يعتبر أصلًا عظيماً من الأصول الإسلامية؛ إذ فى حب الله ورسوله أكثرَ مِنْ سواهما دعوةٌ إلى التحلى بجميع الفضائل .

وفى حب المرء لله بث لحسن المعاملة التى هى ثمرة مكارم الأخلاق الاجتماعية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الدين المعاملة » .

وفى كراهة الرجوع إلى الكفر إشارةٌ إلى التخلى عن جميع الرذائل .

ولا تتحقق هذه الأمور إلا لمن قوى بالإيمان يقينه ، واطمأنت به نفسه، وانشرح له صدره، وامتزج بلحمه ودمه، حتى صار هواه فى رضا مولاه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائى والترمذي .

*
* *

(٨) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِس؟ قَالوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فقال : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

المفــــردات

المتــاع : كل ما ينتفع به : كالطعام ، والثياب ، وأثاث البيت .

قذف هذا : سَبَّهُ ، ووصفه بفعل الفاحشة .

سفك دم هذا : أسال دمه بجرحه أو قتله .

الشـــرح

يبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث انه ليس المفلس الحـق من ليس له مال ، أو مَنْ قل ماله ؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته ؛ فقد يكون معـدمًا فى دنياه ، وهو عنـد الله عظيم الجاه ، وربما انقطـع إعساره بيسار يناله فى حياته ، ويتقلب فى جَنَباته ، وإنما الجـدير بوصف الإفلاس — الذى يظـلم الناس ويؤذيهم بالقول أو الفعل : على النحو المذكور فى الحديث ، فهو — وإن كثرت حسناته — هالك هلاكًا مُفْظعًا ، ومُعْـدِم إعدامًا قاطعًا ، ومدين دينًا

مستغرقا جميع أعماله ، مانعا له من بلوغ آماله ؛ فستؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته ، أخذ من سيئاتهم فوُضِعَتْ عليه ، ثم أُلْقِ فى النار ، فتمت خسارته وإفلاسه وهلاكه .

فالعاقل من أطاع الله ورسوله ، وأحسن معاملة العباد ؛ ليحظى بسعادة المعاش والمعاد . وفقنا الله جميعًا لانتهاج منهاج خير الأنام ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والصلام ، والحمد لله فى البدء والختام .

فهـــرس الكتاب

صفحة



كَمُلَ طبع الجزء الأوّل من كتاب " أدب الإسلام للدارس الثانوية "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧
(١٠ أغسطس سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـــرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٧/١٣٠٠٠)

